العلمانيَّة والعُـنف
الإمبريالية والعُـدوان

■ أ.د. الطاهر مُحمَّد الشريف[1]

ملخّص

يتناولُ هذا المقال، العلاقةَ القائمة بين العلمانيَّة الشاملة (في مرحلتيها: العلمانيَّة الاستبدالية التـي تمَّ فيها اسـتبدال الدين بكيانات غـير دينية، والعلمانيَّة المارقة التي تسـعى إلى المروق من الدين)، ونزع القداسـة، والعنف، بوصفه هتكاً لحرمات الإنسان والطبيعة، وعدوانًا وظلمًا وجهـلاً. وهـذا الهتك، لا يتأتى إلَّا بعد نزع القداسـة عن الكائن الإنسـاني وتحويله إلى مادة استعمالية، أي حَوْسلَته.

وهنا تبرزُ العلمانيَّة الشاملة بوصفها نزعاً للقداسة، ما يجعلها متطابقة مع العنف، فالأخير، مُكوّن جوهري في طبيعة العلمانيَّة ذاتها، وهو ما يظهر أساسًا في تجلِّيها من خلال الامبريالية والحروب الإيطالية، وما بعد الحداثة والاسـتعمار العولمي الاستهلاكي الجديد، الذي تقوده الولايـات المتحـدة الأمريكيـة والصهيونية العالمية. وقد سـعى المقـال إلى تبيان ذلك، عبر محطتين كبيرتين هما: العلمانيَّة الاستبدالية والعلمانيَّة المارقة.

الكلمات المفتاحية:

العلمانيَّة الاستبدالية- العلمانيَّة المارقة- نزع القداسة- العنف- الظلم- الاستعمار.

1 - جامعة باتنة الحاج لخضر، الجزائر.

مقدِّمة

لطالما نادت العلمانيَّة بحرية الإنسان وحقوقه، وشيَّدت لذلك الدول والمؤسسات والجمعيات، وسعت إلى أن تُلصق تهمة العنف بالدين، واضعة لذلك العديد من الأبحاث النفسية والتاريخية والاجتماعية، متناسية ذاتها، وإعادة النظر في سلوكها، فهي كذلك تحتاج إلى مساءلة وإعادة النظر فيها، لما لها من يد في العنف، الذي مارسته ولاتزال تمارسه الدول العلمانيَّة الغربيَّة، والذي تجلَّى في الإمبريالية الاستعمارية، التي لا تزال تمارس وجودها إلى يوم الناس هذا، ما يُبطل القول بما بعد الكولونيالية. فالمتُأمل في العُنف العلماني يجد آثارها أوسع مدًّا وأشد قسوة.

وإن قال قائل: إنَّ الإمبريالية ظاهرة ليست علمانية، بل انحراف عن العلمانيَّة، فلماذا تتكرّر؟ ولماذا تدوم وتتّسع وتشمل كل العالم؟ ولما وقْعُها شديد من حيث إمكان الإبادة؟

كلّ هذه الأسئلة، تعجز أطروحة الانحراف عن الإجابة عنها، فالتكرار والقوة والسّعة، تعني أنها أصيلة في العلمانيَّة، ما يؤكد أنَّ العنفَ أصيلٌ في العلمانيَّة، لا مجرد انحراف يمكن تصحيحه؛ لأنّ الانحراف لا يُمكن أن يتّسعَ؛ لأنه يفتقد إلى المدد من الأصل، ثم لماذا سكتت عن العلمانيَّة بل وباركت؟ وأخيراً وليس آخرًا، الحربان الغربيَّة الأولى والثانية المُسماة ظلمًا بالعالمية، ألم تكن حروبًا علمانية لا دين فيها، بل تقودها حركات معادية للدين، واليوم نرى إبادة غزة أمام ناظري العالم العلماني الذي يُبرر للمجرم الإسرائيلي وينسى حقَّ الفلسطيني، بل يبرر الإبادة الجماعية ويُؤسس لها مخالفًا كل حقوق الإنسان التي نادى بها!

كل هذه المؤشرات، تجعلنا نطرح السؤال عن العلاقة بين العلمانيَّة والعنف، وهل العلمانيَّة عنيفة بطبعها؟ وبتعبير آخر، لماذا تنتج العلمانيَّة العُنف؟ وهل المَخْرج من عُنف العلمانيَّة ديني أم علماني؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة، سنستعين بمنهج النماذج المعرفية، وهو منهج يربط بين أمرين

وهما: الفعل الاجتماعي مع الفعل المعرفي الإدراكي، متوسلاً في ذلك أمرين: الأول وهو النقد الابستيمولوجي الذي يسعى إلى الكشف عن المقولات الإدراكية والمفاهيم والعمليات المنطقية المصاحبة للمقولات والمفاهيم، والتي تنتج لنا منظومة فكرية وثقافية وحضارية، ثم تغيّر مواقع المجالات الاجتماعية من حيث المركز والهامش.

وهذا المنهج، هو الكفيل بالكشف عن العلمانيَّة كمستوى فلسفي معرفي، ثم تحولاتها الاجتماعية، لتُنتج الإمبريالية والعُنف والإبادة.

أوّلا: مفهوم العلمانيَّة والعُنف والإمبريالية: (تجريد العالم من قداسته)

1 - مفهوم العلمانيَّة

الاشتقاق اللغوي في اللغات الأوربية: في اللغات الأوروبية هناك عبارتان تمَّت ترجمتهما إلى اللغة العربية، وسيأتي تحليلهما فيما سيأتي:

Seculaire: وهي صفة مُشتقة من اللاتينية (Saeculum) ، بمعنى العصر أو الجيل[1]، وفي اللاتينية لها مرادف وهو موندوس Mundus وتعني المكان، وبالتالي، فإنَّ "Saeculum" فهي مقترنة بالزمان، أمَّا Mundus فهي مقترنة بالمكان، والأولى قريبة من اليونانية آيون Aeon، التي تأخذ معنى العصر أو الزمان، أمَّا في الثانية، فهي قريبة من Comos الكون أو (المكان)[2]، وبالتالي، فإنَّها مرتبطة من الناحية الاشتقاقية بالزمان والمكان الدنيويين.

ومن هذا الأصل اللغوي، يتبين لنا أنَّ العلمانيَّة ليست مجرد فصل الدين عن الدّولة، بل هي اختزال الوجود البشري في حدود الدّنيا، والتخلّي عن كل ماله علاقة بالآخرة وما تحمله من معاني القداسة، وهنا ستبرز العلمانيَّة بوصفها ضدّ الدين أو القداسة، وهنا سنعتمد على تعريف المسيري للعلمانية، الذي بيَّنَ مستويين من العلمانيَّة المستوى الأول، والذي اصطلح عليه بالعلمانيَّة الجزئية: وهي رؤية جزئية، أي إنها لا ترتبط بأبعاد الواقع كلها[3]، بل بواقع الفصل بين الدين والدّولة، أي الواقع السياسي والاقتصادي لا غير، وهي رؤية براغماتية إجرائية، أي إنها تعمل على التمييز بين

1 - Larousse pratique : 2003 , P 1348

2 - المسيري، 2002، ص 53

3 - المسيري، ص 220

سلطتين هما: السُّلطة السياسية، وتحديد وظائفها والسُّلطة الدّينيّة ووظيفتها الاجتماعية والروحية.

وأمَّا المستوى الثاني، أي العلمانيَّة الشاملة: فإنها وكما يشير إلى ذلك الأستاذ عبد الوهاب المسيري، تختلف عن الجزئية في كونها تستند إلى المرجعية الكامنة، أي إخضاع كل شيء إلى القانون الطبيعي المادي، بما في ذلك الإنسان، فالاختلاف مُتضمّن في أنّ الرؤية العلمانيَّة الشاملة، هي رؤية ذات بُعد معرفي، أي كلِّي ونهائي، وهي على هذا تشغل حيّزًا كبيرًا من الحياة يتجاوز حدود فصل الدين عن الدّولة، إلى فصل كل القيم الدّينيّة والإنسانية عن المجتمع والدّولة والإنسان، وهذا كلّه راجع إلى المرجعية التي تنتمي إليها العلمانيَّة، وهي مرجعية حلولية مادية، تجعل من المادة أصلاً للعالم والإنسان. وهي إلى جانب كونها رؤية، فهي ظاهرة تاريخية تطورت وفق مراحل متتالية نموذجية، ابتدأت بنطاقات جزئية، ثم توسَّعت شيئًا فشيئًا إلى أن وصلت إلى تحقيق لحظات المطلق العلماني، وهي اللحظة المادية و الجنسية والاقتصادية[1].

العقل العلماني والنطاقات المركزية: ما طرحه المسيري في تحليلاته الموسوعية حول العلمانيَّة، هو سعي إلى تركيب يجمع بين البُعد المعرفي والاجتماعي الحضاري والتاريخي للعلمانية، فبُعدها المعرفي، يكمن في الرؤية الحلولية المادية للعالم، وهي المجال الذي نحتاج فيه إلى توسيع النظر، لأنه هو مُوجِّه عمل العقل العلماني، ومنه يمكن أن نكشف عن ممارسة العنف والإكراه التي برزت خلال تاريخ العلمانيَّة، ومادام العقل العلماني حلوليًّا، فهو لابدّ أن يعملَ بمنطق الاختزال والتبسيط، هذه الممارسة التي حكمت كثيراً من فلسفات العصر الحديث وعصر التنوير الأوروبي، وقد لخَّص إدغار موران (Edgar Morin) عمليات العقل الحديث في قوله: « كل معرفة تعمل من خلال فرز المعطيات الدالة ورفض المعطيات غير الدالة: فصل (التمييز أو تفكيك) وتوحيد (وصل، تماهي): ترتيب طبقي (الأساسيات، الثانويات) وعملية المركزة (وفقًا لنواة المفاهيم الرئيسة)»[2].

بناء لهذا النص، تنكشف عمليات العقل العلماني في طريقة اشتغاله، إذ إنَّ العلمانيَّة نموذجها المعرفي حلوليٌّ ماديٌّ، الأخير يرى أنَّ العالمَ مادي وحركته ذاتية لا تحتاج إلى إله مُنزَّه مُتعال، هنا ووفق هذا المفهوم للنواة سيعمل العقل العلماني على التمييز بين المادي وغير المادي، ثم

1 - المسيري، ص 222

2 - Morin, 2005, p:16

ردّ المعنوي إلى المادي، بُغية تفسيره، حيث سيميز بين المعنوي القابل للتفسير وغير القابل للتفسير المادي، وسيعمل على إلغائه وتحطيمه، مما يبرز عنف العلمانيَّة، بوصفها ظاهرة عنيفة، تُبيد كل ما لا ينتمي إلى مجالها الإدراكي، وهذه الممارسة العقلية ستتجلَّى داخل الممارسة الاجتماعية.

وفق هذه الآليات، يظهر عُنف العلمانيَّة من خلال عملية إقصاء وإلغاء كل ما لا ينتمي إلى نموذجها الإدراكي، ثمَّ تحويل العالم إلى مادة استعمالية لا تحكمها أيّ منظومة قيم أخلاقية، وبإقصاء الدِّين أدَّى إلى إقصاء الأخلاق، وانتهى إلى خلق منظومةٍ حضاريَّة تستكبر بالعُنف على الخلق. وهذا لاعتبار أنَّ الاستكبار هو سلطة خرجت عن أي قيمٍ أو قوانينَ تحكمها وتحدُّ من استعلائها، ولكون العنف هو استعلاء يكره المُستعلى عليه ويلحق به الضرر، بُغية تحقيق السيطرة والهيمنة.

فمن الناحية الصورية لعقل العلمانيَّة، فإنَّ العنفَ تجلَّى في كونه يمارس الاختزال بدلاً من الفهم المُركَّب والتكاملي لعناصر الوجود والواقع، وكذلك يمارس عملية قطع مفردات الوجود دون الوصل بينها، لهذا هو ممارسة عنيفة تتّجه صوب ممارسة إكراه وإيذاء واستعلاء على الآخر، سواء أكان الآخر طبيعة أم إنسانًا وغيرها.

أمَّا من حيث مضامين هذا العقل في اشتغاله العنيف، فإنه ينبني على تضخُّم الذَّات الغربيَّة، وهو ما يُصطلح عليها بالمركزية الغربيَّة، والتي نتجت عن زحزحة الإله عن مركزيته، لتحلَّ محلّه مركزيتان متصارعتان: الأولى، مركزية الذات؛ والثانية مركزية الطبيعة. لكن ما يهمُّ هنا، هو أنَّ مركزيةَ الذات الغربيَّة اختزلت الوجود البشري في خصائص الجنس الأوروبي، وما عداه طبيعة يمكن التحكم فيها، وهنا تحولت هذه الذات إلى مُطلق متعال، أي إنّها استبدلت الذات مقام الإله. وهنا تبرز قاعدة أساسية، وهي أنَّه إذا ما تمَّ الاستغناءُ عن الله محلَّ الطغيانُ، حيث إنَّ وجودَ الله يُخفِّفُ من تضخُّم الأنا كحدٍّ أدنى، وفي الحد الأعلى يعطيها حجمها الحقيقي في الوجود، لكن مع إلغاء الإله، فإنَّ العلمانيَّة ستسعى إلى تضخيم هذه الذَّات، للتحوُّل إلى كينونةٍ إمبرياليَّة تسعى إلى السَّيطرة على كلِّ الوجود؛ لأنها حلَّت محلَّ الإله. وهنا سترتبط العلمانيَّة بالإمبرياليّة، والأخيرة، هي استغناء عن المتعال الحق، أي الإله، وإحلال الذات محلّه، لتُصبح الذات الغربيَّة بمثابة الإله تتحكم بالوجود. لهذا فإنَّ العلمانيَّة تجلَّت في حركة الإمبريالية بوصفها استعلاء على الآخر، يلحق به الضرر للوصول إلى السيطرة الكاملة على العالم.

2 - مفهوم العنف

لقـد دأبت كُتب كثيرة على تحليل العُنف بوصفه ظاهرة دينية، وقد آن لنا أن نعيدَ الكتابةَ بطريقة عكسية، تنطلق من الفكر ذي المرجعية الدينية، وهو الفكر الفلسفي الإسلامي بمرجعيته الإسلامية، وهنا لابدّ أن نبدأ من المرجعية الكبرى للمسلمين، وهي القرآن الكريم.

في القـرآن الكريم، جملةٌ من العبارات التي يمكن أن نسـقطها على ظاهرة العنف واللاعنف، وهـي: القتـال، العُدوان، وضدهـا العفو، الرأفـة، الرحمة، التعـاون، ومجموع هـذه العبارات تتلخـص في قوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ الَّذِيـنَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَـدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِـبُّ الْمُعْتَدِيـنَ**﴾[1]. ومماّ تقـدّم، نجد أنَّ الآية الكريمـة قد أباحت القتـال وحرَّمت العُدوان، لدرجـة أنـه يخرج فاعله من دائرة المحبة الإلهية، وهذا ما سـيُعيدنا إلى تحليل العنف، كما فعل الفيلسـوف الكَندي تشارلز تايلور (Charles Margrave Taylor - 1931)، الذي ميَّز بين الميتا-بيولوجـي والبيولوجي، حيث « يُمكننا فهـم العُنف من منظور بيولوجي، أم يجب علينا أن نلجأ إلى الميتابيولوجيا»[2]. وهذا الأسلوب سيسمح لنا بفهم الآية بشكل مُعمَّق، فالبعدُ البيولوجي هو ما نشترك فيه مع الحيوان، لهذا نجد أنَّ القرآنَ الكريمَ، لم يُحرِّم القتال لاعتبار كونه نزوعًا غريزيًّا، وإنَّمـا حرَّم القيمة التي قد توجه الفعل الغريزي، وهنا يمكن أن نضربَ مثلاً بتحريم الزّنا، وليس الجنـس، لأنَّ الأخير غريزة حيوانية طبيعية، وإنَّمـا حُرِّمت القيمة غير الأخلاقية التي تحكم هذه الممارسـة. وقد نُـسيء التعبير حينما نقول القيمة غير الأخلاقية لمـا فيه من تناقض، فمن جهة، نقـول قيمة، ومن جهـة أخرى، نقول غير الأخلاقية، وعليه إيجاد بديل منها، وهو الإثم، فالغريزة الإنسانية تختلفُ عن الغريزة الحيوانية من حيث إنفاذها. فالأولى، تتمُّ إما وفق قيمة أخلاقية وإما وفق الإثم، وأمَّا الحيوانية، فهي ترتبط بنظام طبيعي مُنضبط.

لذلك، فإنَّ القرآنَ الكريمَ، لم يتجه صوب غريزة القتال، التي تحمل المشترك الغريزي الحيواني، والذي يمارس حفظ البقاء والتكيُّف مع العالم، وإنما اتجه إلى العدوان أو الاعتداء، باعتبار كونه أكبر إثم يقترفه الإنسان. فالتعبيرُ الذي أتت به المدرسة الفرويدية، من أنَّ العدوانَ غريزةٌ ونزوعٌ طبيعيٌّ: فيه خلل؛ لأنه لم يتمكن من تصور الإنسـان إلاَّ كآلة ميكانيكية طبيعية، مُتناسيًا أنه كائنٌ حيٌّ قيميٌّ

1 - البقرة:190

2 - تايلور، 2019، ص 922

أخلاقي. وهذه الممارسة الاختزالية لفرويد، جعلته يتصوَّر نزعةَ الموتِ أو «الثيناتوس» أصيلة في غرائز الإنسان، في حين أنَّ العدوانيةَ هي دخيلة، وإنما الأصيل هو القتال. لهذا، فالطَّرح القرآني سيخلصنا من تشاؤمية فرويد، صوب التفاؤل بآدمية الإنسان، بوصفه كائنًا قيميًّا غرائزه تخضع لقيم مُسددة له، كما هو القتال مع الجهاد، الذي هو دفع للظلم والعدوان.

بعد أنّ بيَّنا أنَّ العدوانَ إثمٌ يحكم الغريزة القتالية، سنتجه إلى تبيان طبيعة العدوان، بوصفه الحدَّ الذي يمكن أن نعرّف به العنف. وهو ما يمكن أن نستخلصه من الآيات القرآنية الآتية:

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1]. **﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾**[2].

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[3].

هذه الآيات الكريمة، تعبر عن ظاهرة العنف، بوصفها ممارسة إثم غير أخلاقي، وقد ارتبطت بمعنين وهما: الظلم كما هو الحال في [الآية 30 من سورة النساء]، لهذا فإنَّ العدوانَ هو ظلم، وهنا سنلحظ تعريفًا للعنف من طرف طه عبد الرحمن مُفاده أنَّ " العنفَ إيذاءٌ ناشئٌ عن ظلم وجهل"[4]، ودليل الإيذاء يظهر من خلال [الآية 85 من سورة البقرة]، حيث ربط العُنف بثلاث أساسيات وهي: القتل والضغط المالي، وهو **﴿وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم﴾**" وأخيراً، المعرفي (**﴿أتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾**، ما يعني أنَّ العدوان بوصفه إيذاءً، هو

1 - البقرة: 85
2 - النساء: 30
3 - المائدة:64
4 - عبد الرحمن، 2017، ص42

هتـك لثلاث حرمات، هي: حرمة النفـس، وحرمة العيش الكريم، وأخيراً حرمة المقدس، وإزاحة القداسـة تؤدي إلى الطغيان على كل الحرمات، وهو ما نستنبطه من سورة المائدة الآية 64، حيث بيَّنت أنها عندما جسَّـمت الله أزحت القداسـة عنه، فأدَّى ذلك إلى الطغيان ليؤول إلى العدوان، وهنا نصل إلى تعريف العنف بأنه: هو هتك حرمة نتيجة طغيان وعدوان.

وبالتـالي، فالدين ليس منبت العنف أو تعبيراً مرضيًّا وسـيكولوجيًّا للعنف، بل هو منبت القيم التي ترشد وتهدي الإرادة الحرة الإنسانية إلى الغريزة، في إطار انتظام الإنسان ضمن مسار الوجود ككل، مـا يمنحه تكامله وسـيره نحو الله. لذلك، وجب أن تتميزَ الذات المتدينة بالشـجاعة التي تواجه بها عناصر الشر في الوجود، وبالرحمة والرأفة والمحبة إزاء الكائنات، لاعتبار اسـتمدادها التخلّـق من قداسـة الإله، ما يجعلها تحفظ حرمة الكائنات، ولا تتضخـم ذاتها لتتحولَ إلى كائن مطلق يطغى على غيره.

في حـين أنَّ العنفَ ينشـأ من الطغيان، حيث تسـتغني الذات عن الله، فتتسـلط دون حدٍّ لها، وتصبح مصالحها ورغبتها في تحصيل المزيد من القوة كوسـيلة لبلـوغ كمالها الذاتي. وهنا يبدأ عدوانها على غيرها باعتبار أنّ الغير هو حدود تحدُّ من تسـلُّط الذات، وهو ما وقعت فيه العلمانيَّة ويظهر في الإمبريالية.

3 - مفهوم الإمبريالية الغربيَّة

إنَّ نزوعَ بعض الحضارات إلى الإمبريالية، كان بدواعٍ أسطورية، يظهر فيه إله ما على أنه الأقدر عـلى الانتصـار على غيره من الآلهـة، وهو في الأخير ليـس إلها، بقدر ما هـو تضخُّم ذات تلك الحضارة، لتتّجهَ صوبَ أرض غير أرضها، وشعب غير شعبها، لتحولهما إلى ملكية خاصة، فتتسلَّط عليهـا دون أن يردعها وازع أخلاقي. وعليه، فكل إمبريالية هـي عنف بوصفه طغيان على الآخر، وعدوان عليه يمسُّ حرمة نفسـه وحرمة معاشـه وحرمة مُقدَّسـاته، ما يضفي على الذات الطاغية الإمبريالية، قداسـة إلهية مسـتمدة من إلهها.

ولكن إمبريالية الحضارة الغربيَّة، لها ما يميزها؛ لأنها تحمل بُعدًا معرفيًّا، هو من يحدد وجودها أكثر من كونها مجرد أسطورة تُبرر هيمنة سياسية ووجودية، فالبُعد المعرفي يُبرر رؤيته إلى العالم، ويُقدِّم إجابة لممارسـة الإمبريالية عن ضرورة فعله، فالإمبرياليةَ الغربيَّة، تعتمد تصوُّرًا إيديولوجيًا

يدفعها نحو الهيمنة غير المشروطة على العالم.

وهنا وجب تحديد مفردات الإمبريالية التي يجب تحليلها، فهي رؤية للعالم تحمل وعيًا للذات وللآخر، وممارسة فعلية تعكس هذه الذات.

وهنا سنستعير مصطلحات مارتن هيدغر[1]، وهو الكينونة التي تعي ذاتها، وتسعى إلى تحقيق هذه الذات والآخر الممثل فيما تحت اليد، فالإمبريالية هي إجابة إيديولوجية عن تحديد الكينونة الغربيَّة وعلاقتها مع العالم ككل، حيث أخذت هذه الذات تتشكلُ عندما بدأت تكتشف عالم الطبيعة بصورة مختلفة عمَّا كانت عليه من قبل. لكن مع الاكتشافات الجغرافية التي حصلت مع فجر النهضة الأوروبية، أخذ المنظور الغربي للعالم يتغير، حيث أخذ الإله يتزحزح عن مركزيته للعالم، وهو ما كرَّسته الثورة العلمية الكوبرنيكية، لينتقلَ الكوسموس من مركزية الأرض، أي الجيوسنتريزم إلى مركزية الشمس، أي الهيلوسنتريزم. وهنا ستتزحزح الكنيسة من موقعها باعتبار تزحزح الأرض. ولحدِّ الآن لم تتشكل رؤية الإنسان الغربي نحو ذاته إلَّا بعد مجيء ديكارت، الذي تحوَّل من الذات المفكِّرة المستعلية بالمعرفة والتي أصبحت تعني مزيداً من السيطرة على الطبيعة، وهذه الذات المتفلسفة المفكرة والتي تتميزُ عن الأقوام المتوحشين، هي من ستعمل على السيطرة على عالم الطبيعة بما فيه الأقوام المتوحشون، وهنا سيظهر الآخر غير الأوروبي، على أنَّهُ مُتوحشٌ وقطعةٌ من الطبيعة، وسيرى الغربي ذاته أعلى من غيره؛ لأنه كينونة إنسانية تملك المعرفة ومن ثم حقّ السيطرة، وما عداه طبيعة يتحكم بها بمنطق السّيطرة، أي ما عداه يقع تحت اليد، أي مجرد وسيلة. واكتملت صورة هذه الذات من خلال اعتبار التّاريخ حركةً ميكانيكيةً تقدميةً، يحكمها تقدم العقل الغربي الذي سينزع السحر عن العالم، ويزيل عنه قداسته، ليحوله إلى مادة استعمالية تخدم الرأسمالية. ما يعني أن هذه الذات، يجب أن تطغى على العالم كله، بوصفه مساحة لتقدم العلم والذات الأعلى المالكة للمعرفة، وحقّها في الهيمنة المطلقة على الطبيعة التي لم تعد مملكة الرب، بل مملكة الإنسان الغربي، والتي فيها سيحقق فردوسه الأرضي.

وهنا يمكن أن نفهمَ، أنَّ الفرنسيَّ الذي حمل سلاحه إلى الجزائر سنة 1830 لاحتلالها، لم يكن يرى في الجزائر دولة وشعبًا وحضارة، بقدر ما كان يرى فيها قطعة أرض يحتلّها، فهي ملكه، وبواسطة المعرفة سيحكمها ويُسخِّر خيراتها خدمة لقوته. هذه هي الرسالة الحضارية التي لم تكن

1 - Martin Heidegger 1889- 1976

تعني تكامل الإنسان الجزائري، بل الهيمنة عليه بوصفه بربريّ، وأنه قطعة من الأرض، تُستعمل عند الحاجة ويتخلَّص منها عندما تنتهي هذه حاجة، وهنا أظهرت الإمبريالية عدوانها على نفس الجزائري بقتلها، وبهتك حرمة قداستها ومقدساتها، فلم تعد النفس مقدسة، بوصفها خلق الله، ولا الأرض مقدسة لأنها مملكة الرّب، بل مجرّد طبيعة نحكمها بواسطة المعرفة/القوة.

وهنا يحصل اللقاء بين العلمانيَّة والإمبرياليَّة، حيثُ إنَّ الإمبرياليَّة هي تطبيق للعلمانيَّة، وامتداد لها نحو العالم، فكلاهما يرومان نزع القداسة عن العالم، وتحويله إلى مادة قابلة للإدراك العقلي المادي، وترشيد العالم في إطار حركة اقتصادية مادية، تحول النطاق المركزي للعالم، من الدين والأخلاق إلى الاقتصاد والسياسة، فتُصبح حركة المجتمع ليست لأجل تحقيق قيم أخلاقية، بل لأجل أرباح اقتصادية، وهذا المقصد يتطلب رؤية للعالم تنزع عنه القداسة، وهذه هي العلمانيَّة التي أفرزت الإمبريالية. ووفق هذا التحوُّل من نطاق مركزي ديني/أخلاقي، إلى نطاق مركزي سياسي/اقتصادي، كرَّست العلمانيَّة/الإمبريالية العنف، من خلال هتك حرمة شعوب العالم والعدوان عليهم، لفترة دامت أربعة قرون ولا تزال.

ثانيًا : تشكلات العلمانيَّة الاستبدالية وإنتاج الإمبريالية التقليدية

الشائعُ هو أنَّ العلمانيَّة ممارسةٌ إداريةٌ، تتعامل بحياد مع مختلف الإيديولوجيات والأديان، بحيث تمنح للجميع حق الوجود دون الدخول في عنف. ويُستدل على ذلك من خلال صُلح وستفاليا 1648 م الذي أنهى الحروب الدينية، ونقل ممتلكات السُّلطة الدّينيّة إلى سلطة الدّولة العلمانيَّة، لكن العلمانيَّة عبر تاريخها اتجهت صوب مناقشة آراء الدين وتفنيدها، وامتدت يدها حتَّى إلى الكتب المقدسة، ما يعني أنها لم تعد مُحايدة، وهذا يجعلنا نعيدُ النظر في تاريخ نشأتها، والذي نجده في الحروب الإيطالية التي امتدت من 1494 م إلى غاية 1559م.

في هذه الفترة نشأت العلمانيَّة بوصفها رؤية للعالم، وليست مجرد إجراء إداري لتسيير أمور المجتمع، حيث إنَّ من نتائج الحرب تغيير القناعات من قناعات دينية إلى قناعات علمانية، وهنا تغيَّرت الولاءات لتتغيرَ فعاليةُ التاريخ ووجهته. هنا سيتضح أنَّ العلمانيَّة بنَت العنف لتنتجَ عنفًا آخر أشدّ ضراوة.

وبعد تغيير المحركات الثلاثة للتاريخ وهي: القناعات، الولاءات، الوجهات أو الشرعة. سار تاريخ العلمانيَّة من خلال عملية استبدال؛ حيث استبدلت الكنيسة بالدّولة، واستبدل الكتاب المقدس بالعلم

الوضعي، والنظام الإقطاعي بالرأسمالي ثمَّ الاشتراكي، واستبدل الإله بآلهة أخرى أهمها: اللوغوس أو العقل، وهنا سنستعين بمجموعةٍ من المفاهيم التحليلية منها: نزعة، نزع السحر عن العالم لماكس فيبر، والنطاقات المركزية كارل سميت:[1]، وثقافة موت الإله لتيري إيغلتن (Terry Eagleton)، والتي ستعيننا على فهم العلمانيَّة الاستبدالية، وهذه العلمانيَّة حوَّلت العنف الذي كانت تمارسه الكنيسة باسم الإله، إلى عنف تمارسه باسم العلم والحضارة والعقل، وأوضح تجلٍّ لعنف العلمانيَّة هو الإمبريالية، والحربين الغربيَّة الأولى والغربيَّة الثانية، واللتان أُطلق عليهما ظلمًا بالعالمية.

والعلمانيَّة الاستبدالية، هي تلك العلمانيَّة الشاملة التي نقلت مهام الدين إلى مجالات أخرى، وهو ما عبَّر عنه تيري إيغلتن قائلاً: "مع بدء ضعف قوة الدين، يُعاد توزيع مهامها المختلفة وكأنها إرث ثمين على الطامحين إلى أن يصبحوا ورثته، فتتولى العقلانية العلمية شؤون مبادئ الدين اليقينية، بينما ترث السياسة الراديكالية مهمة تغيير وجه الأرض. والثقافة بالمعنى الجمالي، تصون شيئًا من عمقه الروحي"[2].

وبهذا تكون العلمانيَّة الاستبدالية، توزيعًا لمهام الدين على قطاعات خارجه، بقصد تحجيمه وتهميشه، فهي لم تخرج تمامًا عن الدين بقدر ما هي استبدال له، إلَّا أنها تحوَّلت من عبادة الإله الواحد إلى آلهة أخرى مُتعددة، تشبه آلهة الحضارات القديمة، التي جعلت لكل قطاع إلهه. فيصير الإنسانُ محاصرًا في كُلِّ موطن من مواطن حياته، بإله يمارس عليه عنفه، وهنا تكون العلمانيَّة الاستبدالية أشد عنفًا من العنف الديني. ويبقى دائمًا سؤال من هو كبير آلهتها؟

1 - فلسفة تاريخ الحضارة الغربيَّة ومنطق التقلُّبات: حتى لا يقع في التصورات الآلية للتاريخ وكذلك للتصورات الرمنسية، سعى كارل سميت إلى تفسير حركة تاريخ الغرب، على أنه خاص بأوروبا فقط، ولا يمكن تعميمه على كل تاريخ الإنسانية ككل، وكذلك هو تفسيرٌ له ستَّتهُ الخاصة. أمَّا عن حركة التاريخ فقد لخَّصها في قوله:" لنعدْ إلى أذهاننا المراحل التي تحرَّكت فيها الروح الأوروبية في القرون الأربعة الأخيرة، والحقول التي عرفت فيها هذه الروح مركز وجودها الإنساني. ويمُكن رصد أربع خطوات علمانية بسيطة وعظيمة، تتسقُ مع القرون الأربعة، وتبدأ من اللاهوت وتنتقل إلى الميتافيزيقا، ثم من هذا الأخير إلى الأخلاقي الإنساني لتنتهي إلى الاقتصادي"[3] . وهنا سيتضح أن

1 - Carl Schmitt 1888 – 1985

2 - إيغلتن، 2018، ص201

3 - سميت، 2017، ص139

العلمانيَّة تقلبت من نطاق مركزي وهو اللاهوت إلى نطاق مركزي آخر. ومنهج النطاقات المركزية هو تعبير عن منهج في علم اجتماع المعرفة، يُفسِّرُ العلاقةَ بين المعرفة والأنظمة الاجتماعية، حيث إنَّ التبدُّلات التي عاشها الإنسان الغربي تعني تبديل نطاق مركزي بآخر ليتحولَ إلى حاكم على المنظومة الاجتماعية ككل. فكُلُّ مرحلة تمُثل قرناً من القرون، فالقرن الثامن عشر يمُثِّل الميتافيزيقا، والقرن التاسع عشر يمثل الأخلاقية الإنسانية، وأخيراً القرن العشرين هو قرن الاقتصاد.

وهنا عملت العلمانيَّة على استبدال اللاهوت بالميتافيزيقا، واستبدلت الأخيرة والأخلاق لتنتهي إلى الاقتصاد، وعمليات الاستبدال لا تعني القطيعة مع اللاهوت، بل هي تتولد منه، حيث تُحافظ على صورته وشكله لتعوضها بمضامين تحمل الخصائص نفسها، وهو ما ناقشه سميت في كتابه "اللاهوت السياسي"، فقد صرَّح بوضوح قائلاً:" إنَّ المفاهيمَ النظريةَ الحديثةَ للدولة كلها ذات الدلالة، وهي مفاهيم لاهوتية مُعلمنة"[1]. وهذا النصُّ يُعبرِّ عن منهجية تقوم بالبحث في التماثلات بين اللاهوت والدّولة الدستورية الحديثة، حيث انتقل مركز التشريع من الله إلى الدّولة، وقد تزامن هذا مع المرحلة الميتافيزيقية التي انتشرت فيها فلسفة الربوبية. لكن عمليةَ الاستبدال هي استبدال الإله بالدّولة، والأخيرة ستحمل صفات الإله، بوصفه خالق التّشريعات، فالإله الطَّبيعي هو من يخلقُ قوانينَ الطَّبيعة، ويتجلَّى في الدّولة الخالقة. وقدْ تعزَّزَ هذا الطَّرْحُ مع المنظور الحلولي للعالم، الذي جعل من الإله محايثًا للعالم وليس متعالٍ عليه، فما الدّولة؟ هي الإله.

هنا يمكن أن نكتشفَ أنَّ العلمانيَّة في عصر الحداثة الغربيَّة، ماهي إلَّا لاهوت استغنى عن الله، ليستبدله بإله آخر، ليمنحَ حقَّ السيادة للدولة الحديثة. وعلى الرَّغم من أن أطروحة كارل سميث لها مقدار عال من التفسير، لكن يمُكن تجاوز بعض جزئياتها لزيادة المقدرة التفسيرية، حيث إنَّ عمليةَ الاستبدال قامت بتحويل النسبي إلى مطلق، وهو العقل/اللوغوس الذي أصبح له وجودان، الأول: وهو لوغوس الذات، هذه الذات التي حلَّت محلَّ الإله وأصبحت لها القدرة في حكم العالم والسيطرة عليه، والوجود الثاني: وهو لوغوس/الطبيعة، والذي يعني أنَّ الطبيعةَ تحكمها قوانين صارمة ذاتية يمكن تعقلها وإدراكها، وكلاهما سيتحدّدان في التاريخ والدّولة. حيث إنَّ كليهما نظامٌ طبيعيٌّ محكوم بقوانين صارمة، فالتاريخ هو حركة تقدُّمية للوغوس/الذات، أمَّا الدّولة فتنضبط بقوانين مثلها مثل

1 - سميت، 2018، ص49

لوغوس/ الطبيعة. وهنا تكون العلمانيَّة الاستبدالية قد استبدلت الأدنى بالأعلى[1].

وهنا نصلُ إلى تحديد معنى العلمانيَّة الاستبدالية، وهي العلمانيَّة التي استبدلت الدنيوي بالأخروي، من خلال نقل كل ماهو متعال إلى عالم محايث. تظهر العلمانيَّة في البداية بلون إنساني، ينطلق من دعوة تحرير الإنسان من ضيق الدين وهيمنة رجالات الدين، إلى حرية الإنسان وحقوق الإنسان، وفي الآن نفسه تقع في منزلقات العنف والاستبداد والقمع، وهذا ما يُمكن تفسيره من خلال نقلها واستبدالها للإله باللوغوس. وموضع العنف هنا، أنَّ المحدودَ إذا تحوَّل إلى مطلق بالضرورة سيتحوَّل إلى طغيان وعدوان وكلاهما محدِّدُ العنف، فالعنف هو طغيانٌ من حيث هو تحوُّلٌ للذات إلى مطلق يطغى على غيره من خلال إلغائه وإيذائه، وهو بذلك عدوان على خصوصية الآخر وهتك حرمته.

ومعْلَمُ العنف في العلمانيَّة هاهنا، أنها نقلت خصائص الألوهية المطلقة والمنزهة إلى ما دونها، أي إلى لوغوس الذات، ما حوّلها من كائن نسبي إلى كائن طاغي، يمارس العدوان على غيره دونما أي حدٍّ يردعه، بحكم أنه مطلق. وقد تجلَّى هذا الطغيان في الإمبريالية الغربيَّة، التي طغت على العالم باعتبار أنَّ الذاتَ الغربيَّة مطلقةٌ، وبالتالي، لا توجد مرجعية مجاوزة تحكمها، وهي المرجعية ذاتها. وهو ما سيبرِّرُ عدوانها على شعوب العالم، وأخذ ممتلكاتهم والاستيلاء على أراضيهم، بل وإبادتهم، وهو عينه العدوان، الذي لا يطالُ البشر فقط بل طال الطبيعةَ ذاتها. وقد انتقلَ هذا العنف من عنف أوروبي على غير الأوروبي، ليصلَ إلى أوروبي أوروبي، مع الحربين الغربيتين الأولى والثانية. وهذا التحليل النظري للعلمانية الاستبدالية يحتاج إلى تأكيد من الناحية التاريخية.

2 - الحروب الإيطالية منبع للعلمانية الاستبدالية: يعتقدُ العديدُ من الباحثين، أنَّ العلمانيَّة ظاهرةٌ مسيحيةٌ، باعتبار أنها دين خلاصي يمكن فصله عن الدّولة، في حين لا يُمكن في الديانات التشريعية فصل الدين عن الدّولة، بسبب حضور التشريع وقوة ارتباطه بالمتدين، وغيرها من الآراء التي ليست مجالاً لنقاشنا، لكن ما يعنينا هو لماذا ارتبطت العلمانيَّة بالإمبريالية وممارسة العنف طيلة تاريخها؟ وهذا السؤال وجدت له إجابة من خلال إعادة البحث في منشأها التاريخي، والذي وجدته في الحروب الإيطالية، والتي في أثنائها تحوَّلت العلمانيَّة إلى مركز داخل العالم.

---

1 - إنّ الصيغة الشائعة في استعمال باء الإستبدال هي بادخاله على المستبدل وهو خطأ شائع. والصحيح هو أن تدخل الباء على القسم الذي أُسقط من الحساب، كما جاء في النص: استبدلت الأدنى بالأعلى، أي تركت الأعلى واخذت بالأدنى. يقول تعالى: ﴿**ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل**﴾ (البقرة 108).

ليس من السهل أن يتحولَ المجتمع، من منظومة فكرية كانت تحكم نشاطه الاجتماعي وتُنظِّمه إلى منظومة أخرى، فعملية التحوّل عادة ما تمرُّ بحروب، فتارة تنجح وأخرى لا تنجح، وهنا ولكي نجد تفسيراً عقليًا لعملية التحول من مجتمع يحكمه الدين، إلى مجتمع محكوم بالعلمانيَّة، فإنه لابد أن نُحللَ سُنة تغييره التاريخية، وهذه السُّنة، نجدُ أحدَ مبادئها في أطروحة كارل سميت عندما عبَّر قائلاً: " لا تنطبقُ الحقول المركزية الأربعة المتبدلة للتاريخ الأوروبي في تعاقبها إلا على واقعة تبدّل النخب المتسيدة في القرون الأربعة، وتغيُّر قناعاتها اليقينية وحججها على نحو مُستمر"[1]. فالنخب المتسيدة وفق قناعتها التي تتغير بتغير الواقع، لكن الأمر ليس دائمًا كذلك، حيث قد تتغير قناعات النُخب، لكنها تعجز عن فعل التغيير المطلوب، لكن التغيير يحصل بفعل عناصر أخرى أساسية تحمل في طياتها إمكان تفعيل التغيير، وخلق نطاقات مركزية أخرى. وهذه العناصر المتمثلة في القناعات والولاءات والتوجهات/الشرعات، تعمل مع بعض، حيثُ إنَّ القناعات تتولدُ نتيجة فشل النموذج الحضاري أو الاجتماعي في حلِّ مشكلات المجتمع، ما يدعو إلى تغيير النموذج، ثم توفر نموذج آخر لديه إمكانية الإجابة عن أسئلة الواقع المستجدة. هنا تعمل النُّخب على تطوير الإجابة وخلق القناعات. والأخيرة لابد لها أن تخلقَ ولاءات، والأخيرة هي: تحقيق الالتزام الطوعي لسلطة ما، وعليه، فالولاء سيسمح للقيادة أن تحُققَ طموحَ القناعة ليتحولَ إلى شرعة، أي طريقة في تنظيم المجتمع وتحريك التاريخ، وإلى وجهة هو موليها، لهذا سيصبح الولاء، هو أهم حلقة في صناعة التاريخ والتحولات الاجتماعية.

في الحروب الإيطالية، حصل تغيير القناعات والولاءات، وأُنتجت شرعة وتوجُّها جديدًا للتاريخ. وهنا وجب أن أُعطي مُلخصًا لهذه الحرب، وهذه الحرب كانت نتيجة لما قبلها، خاصة منها الاكتشافات الجغرافية، التي أخذت تُولِّدُ مجتمعاً تجارياً، خاصة في إيطاليا، والأخيرة كانت عبارة عن دويلات، وهذه الدولة تشبه كثيراً مدن الدّولة عند اليونان قديمًا، وكانت في صراع دائم، وازدادت حدة التوتر بينها "ممَّا أدَّى إلى تضارب المصالح، وإلى صراعات: منها صراعات بين الولايات البابوية والبندقية وبين الولايات البابوية وفلورنسا"[2]، وهذا راجع إلى تكوُّن نخبٍ جديدةٍ سنصطلحُ عليها بـ: الأمراء التجار، في مقابل الأمراء الإقطاعيين، وهو ما يعني تحوُّل في مجالِ الاقتصاد، من اعتبار الزراعة مصدراً أساسياً لإنتاج الثروة والتشكيل الاجتماعي، وهذا التحوُّل صوب مجتمع جديد، يحتاج

1 - المصدر السابق، ص140

2 - سليمان، 1999، ص85

إلى نظام سياسي واجتماعي جديد، ينسجمُ مع طموحات الأمراء التجار الذين حقَّقوا ثروةً كبيرةً.

لقد اندلع الصراعُ في بدايته بين المدن الإيطالية والبابا وإمبراطور روما وفرنسا وإسبانيا، ثم أخذت رقعة الحرب لتشـملَ أروبا كلها، بما فيها بريطانيا وهولاندا والنمسـا، فكلٌّ أرادَ أن يُعزِّزَ قوته. وهذه الحرب بدأت سنة 1494 م وانتهت سنة 1559، حيث نشأت وتطورت الحركة الإنسانية، أو حركة إحياء التراث القديم، والكشوف العلمية مع كوبرنيكوس (1473 –1543)، وكذلك الإصلاح الديني مع مارتن لوثر (1483 – 1546)، وهذه العناصر هي التي عزَّزت وأنتجت العلمانيَّة الاسـتبدالية، حيث ستعمل على تغيير القناعات والولاءات لتتغيرَ الشرعة والوجهة. ما يعنـي أنَّ جوَّ الحروب الإيطالية، هو من ساهم في إخراج أوروبا من حالة القرون الوسطى إلى العصر الحديث، وكان لزامًا على الأمراء التجار أن يواجهوا الإمبراطوريات الكبيرة، كالفرنسية والإسبانية، وكذلك سلطة البابا وفساده.

لقد ظهرت فئـةُ الأمراء التجار، الذين جابوا العالم وانفتحوا عليـه، ما أدَّى إلى تغيير في قناعاتهم بضرورة تغيير الواقع الذي لم يكن يُسعفهم، فالبنية الداخلية للمجتمع الإقطاعي لا تساعدُ على تطور النشـاط التجاري، وفي الواقع الخارجي هناك سعي الإمبراطوريات الكبرى للاستلاء على تجارتهم، ناهيك عن كون المزاج والعقلية الزراعية لا تُؤمن تطورَ التجارة. وهنا عمل هؤلاء الأمراء على تشجيع الحركة الإنسانوية، التي قامت بتغيير منظور الإنسان الغربي على ذاته، حيث بدأ وعيٌّ جديدٌ يتشكل، وهو الثقة في الإنسان، بدل النظر إليه، على أنهُ محلُّ الخطيئة، وهنا ستصبحُ السلطةُ القديمة ممثلةً في الكنيسـة غير قادرة على خلق الولاء لأفرادها؛ لأنّ وعي الإنسان بذاته أخذ يتجاوز الكنيسة ومقرراتها وعقائدها، وهنا سيصبح الكلام باسم الله، غير مقنع لإنسان يرى نفسه أفضل مما تصوره له الكنيسة.

وقد عزز هذا التصور الإصلاح الديني، وهذا الأخير عمل على دحض توسط الكنيسة بين الله والإنسان ليتحول الدين من فعالية جماعية مركزيتها الكنيسـة إلى تجربة ذاتية؛ حيث تم استبدال مرجعية السلطة، وذلك من خلال تحطيم الولاءات القديمة وإنتاج ولاءات جديدة، وقد سـاهمت البروتستانتية في تعزيز الرأسمالية، وهنا توقف ماكس فيبر، لأنَّ الرأسمالية تحولت إلى حركة إمبريالية. لهذا فالبروتستانتية كعامل مساعد لتطور الرأسمالية والإمبريالية هو الجوُّ الذي نشأت فيه، وهي الحروب الإيطالية، وهي حروب بين إمبراطوريات انخرطت فيها الكنيسة المركزية، ما شغلها عن مواجهة الإصلاح الديني الذي كان يُلبي حالة التطور الاجتماعي الجديد والناشئ من حركة الاكتشافات الجغرافية، وتطور التجارة كبديلٍ عن الزراعة.

لهذا فالبروتسـتانتية ليست سـوى علمنة للدين، حيثُ إنها نزعت القداسـة عن الكنيسة، ولكنها

عجزت عن استعادة القداسة، ما يعني أنها زادت من تكريس طبيعة العقل العلماني القائمة على ممارستي القطع مع المتجاوز والمتعالي والمقدس، ثم اختزال الوجود في المادي والحلولي، فكانت هي أول من أسّس للفردانية كأيديولوجيا، والتي ستسمح بتطور الرأسمالية التي تنبني على الحرية الفردية. والتي ستختزل الوجود البشري في تجربته الذاتية، وتختزل تجربته في تحصيل الثروة، ما سيجعل العالم بالنسبة إليه مادة استعمالية. ووفق هذا النمط الإدراكي سيعملُ تاريخ أوروبا على تحويل العالم إلى مادة استعمالية، وهنا تجتمع العلمانيَّة والعنف، حيث جعلت العلمانيَّة من الإنسان الأوروبي، ذاتًا مُتضخمة طاغية على غيرها، وعدوانية ضد الجميع، حيث إنَّ العالم بأسره هو مجال مادي(سواء أكان بشرًا أم طبيعةً)، وللإنسان الغربي حقُّ تملُّكه، من خلال إكراهه وقمعه، ونزع القداسة عن إنسانيته، ومن ثمّ الطغيان عليه والعدوان على حرمته.

وقد زاد عنف العلمانيَّة أكثر عندما تحول الولاء من الإله إلى الدّولة القومية، التي قادت الحركة الإمبريالية، والتي تحولت إلى بديلٍ عن الإله، كما صوَّرها كارل سميث، وقبله توماس هوبز، وهنا تبرزُ أهميةُ الحروب الإيطالية، حيث ضرورة التحرُّر من سلطة البابا وزيادة في هيمنة الإمبراطور. وقد عمل الأباطرة في أثناء هذه الحروب على تعزيز المنحى القومي، وهنا بدأ التفكيرُ في أمرين: التحررُ من البابوية وتعزيز قوة الدّولة بوصفها قوة سيطرة. وفي هذه المرحلة برزت العلمانيَّة باعتبارها فصلا للدين عن الدّولة، ما عزّز استقلالها عن البابا، والأمرُ الثاني تعزيزُ السيطرة الداخلية من خلال نزع القداسة، ما يسمح بتحول القيم المركزية للمجتمع، والتي ليست دينية بل هي اقتصادية، وهو ما يُعزِّز سيطرة الدّولة وضعف هيمنة الدين وسلطة البابا، وهذه تعدُّ واحدةً من أهمِّ نتائج الحرب الإيطالية.

3 - نتائجُ الحروب الإيطالية

يمكنُ تلخيصُ نتائج هذه الحروب الطويلة فيما سيأتي:

• إنَّ العلمانيَّة نشأت في منبت إمبراطوري، أي أنها تولدت نتيجة مساعي إمبراطورية كان غرضها إنتاج نمط اجتماعي جديد، يخرج من سلطة الكنيسة إلى سلطة مُتحررة تسمح بتكثير النشاط التجاري وزيادة سلطة السياسي على حساب الديني.

• تُصبح العلمانيَّة تبريراً لاستبدال منظومة اجتماعية بمنظومة أخرى، تحافظ على منطق السيطرة فيها وتستبدل مضامينه بوجهيها، الأول وهو العلمانيَّة الجزئية، وهي فصل الدين عن الدّولة، وتعملُ على تحرير السياسي، ليصبحَ هو النطاق المركزي في إدارة الشأن الاجتماعي، وتهميش الديني الذي سيصبح

شأنًا خاصًا بالفرد. أمَّا الوجه الثاني، فهو العلمانيَّة الشاملة، التي تعني نزع القداسة عن العالم، ليتحولَ إلى مجالٍ تجاريٍّ يمكن السيطرة عليه وتملكه كله، دون ضابط أو قانون بل بصورة مُطلقة، وهنا ينشأ عنف العلمانيَّة، بوصفه طغيان تتخارج فيه الذات عن حدودها، وعدوان بوصفه انتهاك حرمة الكائنات الأخرى.

• الإصلاح الديني كان معينًا للعلمانية الاستبدالية، حيث إنه حصر الدين في المجال الشخصي الفردي، وبالتالي، لم يعد له القدرة على إدارة الشأن الاجتماعي، وهو ما يتيحُ للعلمانية الاستبدالية، بأن تمارسَ عمليات الاستبدال الكبرى، باستبدال لوغوس الذات بالإله، من خلال الحركة الإنسانوية، والدّولة بالكنيسة، وأمَّا موقع الدين فهو مسألة شخصية.

• مآلات العلمانيَّة الاستبدالية، هو تغوّل الدّولة القومية وتحولها إلى إله مُدمر، حيث نشأت منه حركة استعمارية دمرت العالم لمدة ثلاثة قرون، ثم أنتجت حربين غربيتين الأولى والثانية.

ثالثًا: العلمانيَّة المارقة والإمبريالية الجديدة

لقد استبدلت العلمانيَّة الاستبدالية إلهًا غضوبًا بإله آخر مثله، وتمثل في الدّولة القومية الحديثة وفي اللوغوس والطبيعة، هنا انتبهت فلسفات ما بعد الحداثة أو الاختلاف كما يُسمِّيها البعض، إلى ضرورة التحرُّر من ضلال الإله، وهو ما عبرَّ عنه تيري إيغلتن في قوله: " في حين أنَّ الحداثةَ تختبرُ موتَ [الإله] على شكل صدمة، أو تحدٍّ، أو كمصدر للألم بالإضافة إلى كونه سببًا للاحتفال، فإنَّ ما بعد الحداثة لا تختبره على الإطلاق"[1]، وهذا راجع إلى أنَّ العلمانيَّة في مرحلة ما بعد الحداثة، ستمرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية، وهذا راجع إلى انتباهها إلى أنَّ الخطيئةَ في الحداثة أنها لم تتخلص من ضِلال الإله الذي توزَّعت مهامه. لكن مالا نُسلِّمُ به لتيري إيغلتن، هو أن العلمانيَّة المارقة مروقها من الدين، لا يعني أنها تخلَّصت من الإله، بل صنعت إلهًا آخر أشد طغيانًا، وهو الصيرورة العدمية الذي تُجسِّده الثقافة الاستهلاكية والإمبريالية السائلة، التي تدخل في كل مكان دون ضابطٍ أو حدٍّ وهي تعملُ على تعرية الإنسان من كل قيم أخلاقية وكل مسؤولية ومن كل ثورية، ليتحولَ إلى شخصية تافهة همَّها شهواتها وغرائزها العشوائية.

فإن كانت عملية الاستبدال حافظت على وجود الإله كقوالب وغيَّرت مضامين القوالب، فإنَّ سعيَ العلمانيَّة المارقة هو المروق عن قوالب الدين ذاتها، لكنها أنتجت آلهة أخرى وهي إمبريالية الاستهلاكية،

1 - إيغلتن، 2018، ص214

والتي تمارس إبادةً للطبيعة والفطرة البشرية معًا، وهذا من خلال حربها على القيم الأخلاقية والإنسانية العليا، ومروقها من الدين، أي أنها خرجت من الدين لأنها تريد إيجاد قوالب غير دينية، وما العنف الذي نشـهده اليوم: فلسطين(إسرائيل)، العراق، الشرق الأوسـط الجديد، داعش و..إلخ. كلها من نتاجات هذه العلمانيَّة، لأنها حروب تسعى إلى تفكيك كل القيم الإنسانية، باعتبار أنَّ الأخيرة هي مانع للهيمنة الأمريكية، والتي أدَّت إلى تحويل العالم لمادة استهلاكية. فالشركات تنتجُ وكل العالم يستهلك، ولكي يحصل هذا الهدف، لابدّ أن تنتجَ إنسـانًا لا يحمل قيمًا ولا مسـؤولية، يبحث عـن تلبية رغباته التي لا تنتهي، وخالٍ من روح المسؤولية، ومن القيم، ويستهلك كل شيء. أي أنها نزعة ضد الإنسان المُكلف والمستأمن والمحسن، وهنا ستمارس عنفها من خلال إبادة القيم ومن خلفها الإله المُنتج للقيم. وهذه العلمانيَّة يمُثلها فكريًا وفلسـفيًا جملةً من الفلسفات، منها: تفكيك بنية اللغة، لينتج سفسطائية جديدة تنتج دوال دون مدلولات، ولعلَّ أهمها، دال الإرهاب الذي تستعمله أمريكا دون مدلول مُحدد، لتعطي لنفسها الحق لتجاوز القانون الدولي، حيث قتلت ما قتلت، والآن تستعمل عبارة "حق إسرائيل في الدفاع عن النفس"، وهي دالٌ دون مدلول، وغيرها من تجليات هذه الفلسـفات التي أسَّست لعنف الإمبريالية السائلة. وجعلت من السطحي المحايث، إمكانية المساواة بين الجميع، بين المجرم والمسالم، وحوَّلت الإنسان إلى كائن سطحي دون عمق، لا يقدر على التمييز بين الأعلى والأدنى، خال من أيِّ قيمة.

مـا يعنـي أنَّ العلمانيَّة المارقةَ هي تعرية الإنسـان من أيِّ قيمةٍ من التعالي، مـن الإلهي ومن التجاوز، وقدرته على التمييز بين الخير والشر ومن المسـؤولية والثورة، ولهذا التحول نتيجتان، الأولى، هي زيادة القوى الاسـتكبارية من قدرتها على السـيطرة، والثانية، خلق نماذج بشرية يسهل التحكم بها، لأنها خالية من أيِّ مبادئ. مُتوسلاً في ذلك بوسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي، التي شيأت مشاعر الناس وبلدتها، ومن الوجدان أخذت تحفر عميقًا لتصلَ إلى عنفٍ ضد الفطرة البشرية، هتكًا لحرمتها، من خلال فلسفات اللاهوية والاختلاف، ما يعني أن يصبح الإنسان بدون هوية، وهو ما يعني أنه بدون طبيعة تُميِّزه عن غيره من الكائنات، ليتساوى كل شيء، وهذا القول الفلسفي الذي ظاهره أنi يُكرِّسَ التنوعَ، في حين أنَّ جوهره هو تكريس الاختلال، حيث أصبح الإنسان بدون هوية ولا وجهة ولا تاريخ، حالة عدمية، ما يعدم التنوع ذاته.

خاتمة

في خاتمة هذا المقال، أعتقدُ أنَّ العنفَ جزءٌ أصيلٌ من العلمانيَّة، وهذا مردُّه إلى نزع القداسة عن العالم،

وتحويله إلى مادة استثمارية اقتصادية تحكمها السياسة، وأصالة العنف فيها، بناه من خلال النتائج الآتية:

1 - العلمانيَّـة في وجهها التاريخي الأول مع عصر الحداثة، عملت على اسـتبدال الطبيعة بالإله والعلم بالإنسان وغيرها من الآلهة، وهذه العلمية الاستبدالية أدَّت إلى خلق إمبريالية هي الأعنف عبر تاريخ البشرية.

2 - وعنف العلمانيَّة مسألة بنيوية عميقة في طبيعة الرؤية العلمانيَّة للعالم، فهي رؤية اختزالية تختزل الوجودَ في حدود عالم الدنيا، وعليه ستعملُ على إبادة كل ما لا ينسجم وطبيعة رؤيتها للعالم، تتحول إلى عدوان، ومن ثم إلى عنف.

3 - وممَّا زادَ من عنف العلمانيَّة الاستبدالية هو فصلها للقيمة الأخلاقية عن العمل، واستبدال القيم الاقتصادية والسياسية بالقيم الأخلاقية، ما من شأنه أن يحوّل العالم إلى مجال صراع، يكون فيه البقاء للأقوى، والأقوى لا تحكمه قيمه الأخلاقية، ما سيحوِّل القوةَ إلى عنف.

4 - المرحلـة الثانية للعلمانية، هي العلمانيَّة المارقـة، والتي ظهرت في عصر ما بعد الحداثة، فإذا كانت العلمانيَّة الاستبدالية مشكلتها مع الدين وضرورة استبعاده، فالعلمانيَّة المارقة مشكلتها مع الله، وتريد تصفية حضوره حتى على مستوى صفاته وتجلِّياته.

وأمَّـا المخرج والحـل المُقترح لعلاج عنف العلمانيَّة، فإنه يكمن في المشـكلة ذاتها، وهو الإله، فخطـأ الحداثة أنها تخلَّت عن الإله لتتخلَى عن الإنسـان وهو ما صدقـه قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُـوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[1]، لهذا كان على الفلسفات الغربيَّة، أن تجدَ الوصلَ بكل ما يصل بالإله الحق، حيثُ إنَّ نسـيانه يُؤدِّي إلى عنف نَسْي الإنسان، وذكره يُحقق إنسانية الإنسان، وعندها تتحدّد الحرمات ولا تنتهك. وهذا الوصل يجب أن يكون بما أمر الله به أن يُوصـل، وهو عينه الولاء للأدِلاّء الحقيقيين على الله، فالعلمانيَّة في جانب منها كشـفت عن الأدلاء المُزيفين والدجَّالين، الذين يكتبون الكتاب من عند أنفسهم، ثم ينسبونه إلى الله، ويتقوَّلون على الله مـا لم يقُل، ويُحرِّفون الكلم عن مواضعه، فالكشـفُ عن الدجل، لا يعني قطع الوصل مع الله، كما فعلـت العلمانيَّـة، فانتهت إلى العنف، بل يكون بالوصل مـع الأدِلاّء الحقيقيين، الذين هم كينونات قيمية عليا، تتصفُ بالأخلاقية العظيمة، التي من شأنها أن تُغيرِّ وجهةَ التاريخ، من الهتك إلى الحفظ، ومن العدوان إلى التكافل، ومن الفساد إلى الإصلاح، وهنا سيتوقف الظلم ويُقام العدل بقائمه.

1 - الحشر:19

قائمة المراجع والمصادر

الكتب العربية

- إيغلتن، ت. (2018) الثقافة وموت الإله، ت: رجمة أسامة منزلجي، دار المدى، ط1، بيروت.
- تايلور، ت. (2019)عصر علماني، ت: نوفل الحاج لطيف، جداول للنشر، ط1، بيروت.
- سـليمان، ع. و جمال الدين، م. ون. (1999) التاريـخ الأوربي الحديث، دار الفكر العربي، ط1، مصر.
- سـميت، ك. (2017) مفهوم السياسي، ت: سومر المير محمود، مدارات للأبحاث والنشر، ط1، مصر.
- سـميت، ك. (2018) اللاهوت السياسي، ت: رانية الساحلي ياسر الصاروط، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، بيروت.
- عبد الرحمان، ط. (2017) سؤال العنف، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، ط1، بيروت.
- فيبر، م. (1995) الأخلاق البروتسـتانتية وروح الرأسمالية، ت: محمد علي مقلد، مركز نماء القومي، ط1، بيروت.
- المسيري،ع. (2002) العلمانيَّة الجزئية والعلمانيَّة الشاملة، دار الشروق، ط1، القاهرة.

الكتب باللغة الاجنبية:

- Larousse pratique : Larousse, Italie , Juin 2003 , P 1348.
- Morin, E. (2005) introduction a la pensée complexe, Edition du seuil.

التَّوسُّعُ الأوروبيُّ وإبادة السّكَّان الأصليّين بأمريكا خلال القرنين السادس والسَّابع عشر

■ أ. م. د. ريم اليعقوبي[1]
■ أ. م. د. بوبكر أحمد[2]

ملخّص

حـاول هذا البحث، اسـتعادة الذّاكرة التَّاريخيّة التي تجاهلت الخـوض في الجرائم المُرتكبة ضدّ السّـكَّان الأصليّين لـ «أبيـا يالا»، ضمن قراءة متأنّية للأحداث التَّاريخيّة، بهدف «إنصاف» الشّـعوب المغلُوبة وإمَاطة اللّثام وكشف المُلابسات المُرتبطة بالتوسّع الأوروبي (للبرتغاليين والأسبان والإنجليز والفرنسـيين)، بأمريكا الجنوبيّة وأمريكا الشماليّة خلال القرنين 16م و17م، ونفض الغبار عن أشكال العنف، والجرائم المُرتكبة وبشاعة ما اقترفوه، والذي يُعتبر إجرامًا منظّمًا وممنهجًا ضدّ الإنسانيّة، رغم مُحاولات محوِها وإنكارها من طرف بعض الأوسـاط الاستعماريّة، ودحض الأفكار المتداولة حول أنّ مـا حصـل إنّما هو حدث طبيعي زمن الحروب، ولا يرتقي إلى مسـتوى الإبـادة الجماعيّة، وإنّما كان دفاعًا عن النّفس. لقد سـعت هذه الدّراسـة، إلى إثبات دمويّة وعنصريّة الممارسـات التي أدّت إلى إبادة الإنسـان والمـكان، فكانت الإبادة إبادات، إبادة الأعراق الأصليّـة، وتدنيس الأرض، وفتك بالسّكَّان، وتهميش الإرث الثقافي والحضاري لهذه الأمة، ومحوِه من الذّاكرة المحليّة والإنسانيّة.

الكلمات المفتاحية: التوسّع الأوروبيّ- أبيا يالا- السّكَّان الأصليون- إبادة جماعية- فظاعة ووحشيّة- انهيار ديمغرافي- محو ثقافي.

---

1 - باحثةٌ في التاريخ الحديث، وتاريخ النوع الإجتماعي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية-جامعة تونس.
2 - باحثٌ في التاريخ المُعاصر، جامعة تونس.

المقدِّمة

تطرحُ دراسةُ التوسُّع الأوروبي بأمريكا أو بـ «أبْيَا يَالاَ»[1] خلال القرنين 16م و17م، وما ترتَّب عليهِ من إبادةٍ جماعيّةٍ للسكان الأصليّين، وكذلك الكثير من الصّعوبات التي تتَّصلُ بالكشف عن الجانب المُظلم من هذا التَّاريخ، المُتميّز بارتكاب مُمارسات لاإنسانيَّة ضدَّ «الهنود الحُمر»[2]. تطرح الكثير من الاسئلة وعلامات الاستفهام

إضافة إلى ذلك، نُدرة الدِّراسات التَّاريخيَّة التي تطرَّقت إلى هذا الموضوع، التي حتَّى وإن وُجدت -خاصَّة الغربية منها-، فإنَّها غير مُحايدة وغير موضوعية، أو أنَّها لا تُوليه القدر الذي يستحقُّه من الاهتمام. إذ أنَّ أغلبها يُحيل إلى وجود إبادة جماعيَّة للسكَّان الأصليّين بالأمريكيّتين، دون أن تُقدِّم تحليلاً شاملاً ومُعمّقًا لأساليب وطرق الإبادة. في الوقت الذي تُلحُّ فيه هذه الدراسات على كون التَّاريخ الإسلامي هو تاريخُ سفكِ دماءٍ وتنكيلٍ وتهجيرٍ، مع وصف هذه الممارسات بالبربرية، وقد ألحقت بالمُسلمين ظلمًا تاريخيًّا، استند إلى مقولات الإدانة، ووصم الفتوحات بأنَّها حملات للتَّصفية العرقيَّة للشُّعوب الأصليّة، والتي ترتقي إلى جرائم ضدَّ الإنسانيّة.

يعكسُ تستُّرُ عددٍ من الدِّراسات الغربيَّة على الجرائم المُرتكبة ضدَّ السّكَّان الأصليّين «بأمريكا»، والتنصُّل من المسؤوليّة التَّاريخيّة، -بقدر ما يُبيح هذه المُمارسات ويُبرِّرها إلى حدٍّ كبيرٍ- التأثُّر بالتّقاليد الاستعماريّة، وبنظريّة المركزيّة الأوروبيّة الغربيّة، المُروِّجة لمُحوريّة الإنسانِ

1 - Juncosa, F. 1987, p.39 / «أبيا يالا» (Abya-Yala) هو الإسم الأصلي الذي أطلقته قبيلة كونا في «بَنَمَا»(Panama) وشمال كولومبيا على القارة الأمريكيّة بأكملها، وهو يعني الأرض في مرحلة النّضج الكامل، والذي اعتمده جزءٌ كبيرٌ من الشّعوب الأولى في الأمريكيّتين لتسمية الأراضي التابعة لهم.

2 - إنَّ اعتمادَ تسمية «الهنود الحُمر»، يُعدُّ مُغالطةً اقترفها كريستوف كولومبس، وقد تمَّ تبنِّيها على أنَّها حقيقةٌ تاريخيّةٌ.

الأوروبيِّ وحضارته في الكون، كما تُشَرعِنُ التوسُّـعَ والهيمنةَ على بقيّة الشّعوب والحضارات الأخرى، والمحو المُمنهج لتاريخ السّكّان الأصليّين من الذّاكرة الجماعيّة محليًّا وعالميًّا.

لذا سـنحاولُ في هـذا البحث، نفضَ الغبـار عن الذّاكـرة التّاريخيّة التـي تجاهلت جرائم الأوروبيين في حقّ السّكّان الأصليّين، والذي يُعدُّ إجرامًا مُنظَّمًا ومُمنهجاً ضدَّ الإنسانيَّة، وذلك بالاعتماد على جملة من المصادر[1] والمراجع[2].

وقد كنّا نطمحُ الاعتماد على الأرشيف والكتابات التي وثّقت التّاريخ الشّفوي، لكنّ صعوبة الاطّـلاع عليها حال دون ذلك[3]. وكذلك تحديد الظروف الاقتصادية والسياسـيّة والسـياقات العلميّـة والتّقنيّـة والثّقافيّة التي دفعـت الأوروبيين إلى اجتياح «العـالم الجديد»[4] في مرحلة أولى. وسـنتطرق في مرحلة ثانية إلى التوسُّـع الأوروبيّ باختصار، ثمّ سنتناول بالتّحليل طرقَ وأشكالَ الإبادة، وبيان فظاعتها ووحشيتها. أمَّا المرحلة الثالثة من البحث، فتتعلقُ بدراسة النّتائج الدّيمغرافيّة والاجتماعيّة المُترتّبة عن هذه المُمارسات.

1 - ظروف التوسُّع الأوروبيّ في الفترة الحديثة

لا يمكنُ فهمُ أشـكال الإبادة للسـكّان الأصليّين «لأمريكا»، دون التطـرُّق إلى الظّروف التي مَهَّدت لتوسُّع الدّول الأوروبية وبسط نفوذها على مجالات جغرافيّة جديدة من العالم في نهاية

---

1 - يُعدُّ كتاب الإسباني بارتولومي دي لاكاساس (Bartolomé de Las Casas) عن «مذابح الهنود الحمر» من أهمّ ما كُتب في هذا الموضوع، إذ أطنب المؤلّفُ الذي عاصر الأحداث في وصف وحشيّة المُمارسات والجرائم والمجازر المُرتكبَة ضدّ السكّان الأصليّين خلال القرن 16م. في المقابل، فإنَّ كتابَ جاك كارتييه (Jacques Cartier) حول الرّحلات التي قام بها في «الأراضي الجديدة» بكندا، تطرَّق فيه إلى دراسة عادات وتقاليد وطقوس ولغة القبائل المحليّة خلال رحلاته الثّلاثة، دون ذكر الجرائم المُرتكبة ضدّ هذه الشّعوب خلال القرن 16م.

2 - أشار الأنثروبولوجي الأمريكي روسال ثورنتون (Russell Thornton) في مؤلَّفه «الهولوكوست وبقاء الهنود الأمريكيين: تاريخ السكان منذ عام 1492»، وكذلك المؤرّخ الأمريكي ديفيد ستانارد (David Stannard) في مؤلّفه «المحرقة الأمريكيّة: كريستوفر كولومبس وغزو العالم الجديد»، إلى فظاعة الممارسات المُرتكبة في حقّ «الهنود»، وذلك في إطار دراسة الإبادة الجماعيّة للسكان الأصليّين بأمريكا.

3 - إنَّ الوثائقَ الأرشيفيّة والشّفويّة، تتطلّبُ الحضورَ إلى عين المكان للاطّلاع عليها، إضافة إلى أنّها غير مُتاحة على المواقع الالكترونيّة.

4 - العالم الجديد (Le nouveau Monde): هي تسمية شائعة في عدد من المراجع للقارة الأمريكيّة، لكن يحمل مدلولها أنّها أراضي بكر خالية من السكّان، ويجوز للأوروبيّين بكُلِّ مشروعيّة تعميرها وإرساء نظمهم السياسيّة والاقتصاديّة والدّينيّة والثقافيّة فيها.

القرن 14م وبداية القرن 15م. وقد ساهمت جملةٌ من الدوافع الاقتصاديّة والسياسيّة والدينيّة في تنظيم عدّة رحلات «استكشافية» توسُّعيّة انخرطَ فيها كُلٌّ من إسبانيا والبرتغال وفرنسا وإنجلترا. كما ساعدت جملةٌ من العوامل التّقنيّة والعلميّة والثقافيّة على تحقيقها.

1 - الدَّوافع الاقتصادية

مثَّلتِ الدّوافعُ الاقتصاديّةُ أساسَ «الاكتشافات»[1] أو الحركات التوسعيّة الأوروبيّة «بأمريكا»، للهيمنة على المسالك التّقليديّة للتّجارة العالميّة من ناحية، والقضاء على وساطة واحتكار التجّار العرب وتُجّار المُدن الإيطاليّة (جنوة والبندقيّة) لهذا النّشاط وتجاوزهم من ناحية ثانية.

لقد امتدَّت الإمبراطوريّة الإسلاميّة من المحيط الهندي إلى المحيط الأطلسي، وهيمنت اقتصاديًّا على هذا المجال بفضل امتلاكها للذهب ورواج عملتها عالميّاً من القرن 8م إلى بداية القرن 11م. وكانت البضائعُ مُتنوّعةً مثل: العنبر والصّمْغ والجلود والمجوهرات والنّسيج والتُّمور والقمح، لكن أهمّها كان الذّهب والملح والعبيد[2]. إذ استقرَّ العربُ على ساحل شرق إفريقيا وصولاً إلى زنجبار وجزر القمر ومدغشقر[3]. وربطت مراكبهم الشرّاعيّة موانئ باكستان (السند) بموانئ عُمان واليمن وموانئ شرق إفريقيا. وقد عمل التجار على ترويج المنتوجات الاستوائية (القهوة والأرز وقصب السكر)، والصينية (المسحوق والورق)، كما كانوا بالإضافة إلى ذلك يتعاطون تجارة الرقيق. وقد بلغ التجَّارُ العرب في نطاق تجارتهم مع المحيط الهندي، سواحل الهند وجنوب شرق آسيا، حيث أنشأوا مراكز تجارية مُهمَّة بساحل مالابار في سيرنديب (سيلان/سريلانكا)، وامتدّت رحلاتهم إلى سوندا (الجزر الإندونيسيّة والفلبّين) والصين، حيث قاموا بجلب المنتوجات الثمينة مثل: الحرير والتوابل. وفي المقابل سيطر الإيطاليون على التّجارة البحريّة في البحر المتوسّط، الذي ظلَّ محورَ الثقل الاقتصادي العالمي قبل الاكتشافات الكبرى. فقد سخَّرَ تجار جنوة والبندقيّة الإمكانات الأساسيّة لازدهار تجارة التّوابل والمنسوجات ورواجها على نطاق واسع انطلاقاً من البحر، بعد التخلّي تدريجيًّا عن الطُّرق

---

1 - Lebrun, F. 1999, p.29 / نسوق مصطلح «الاكتشافات الجغرافيّة» المُتداولة في أغلب الدّراسات الأنتروبولوجيّة والإتنولوجيّة والأركيولوجية والتّاريخيّة والحضاريّة والجغرافيّة بكلّ حذرٍ، لأنَّ ذلك يدخلُ في إطار توسُّعٍ وغزو وتدمير واستعمارٍ أوروبيٍّ لحضارة «أبيا يالا».

2 - Lebrun, F. 1999, p.29

3 - زنجبار: أرخبيل يقعُ على ساحل شرق إفريقيا ويخضع لحكم سلاطين مسقط.

البريَّة التي تربطُ أوروبا وآسيا، خاصَّة بعد سقوط الإمبراطورية البيزنطية لصالح الإمبراطوريّة العثمانيّة. لذلك أصبحَ البحثُ عن مسالك جديدة للوصول إلى الهند والقضاء على وساطة العرب من بين الدوافع غير المباشرة للحركة التوسُّعية الأوروبيّة، خصوصاً مع نُدرة التوابل والذهب والمعادن الثمينة[1]. فمنذ أواسط القرن 15م، عرف الاقتصاد الأوروبي انتعاشةً كبيرةً بعد فترة الانكماش الطويلة التي مرَّ بها، بسبب تَحسُّنِ الوضع الصحي، وارتفاع عدد السّكّان، وتنامي الطّلب على مواد جنوب شرق آسيا والهند خاصّة التوابلِ والحرير والقطن والسكر وغيرها، المُعتمدة في إعداد الطّعام وحفظ اللّحوم وإعداد الأدوية[2].

2 - الدّوافع السياسيّة والدينية

ارتبطت الحركاتُ التوسُّعيّة الأوروبيّة أيضًا، بأسباب سياسيّة وبحملات صليبية غير مُعلنة. فقد أولى ملوك أوروبّا اهتماماً كبيراً بالرّحلات «الاستكشافيّة» وعدُّوها دعامةً لبسط نفوذ الدّولة ودعم مكانتها السياسيّة والاقتصاديّة داخليّاً وخارجيّاً. فإلى جانب ما تُوفِّرهُ من موارد إضافيّة، جديدة كانت أوروبّا في حاجة إليها، فهي تُساهم كذلك في توسيع المجال الجغرافي للدّول بالهيمنة على مناطق جديدة. وقد شَجَّعَ ملوكُ أوروبّا هذه الرّحلات رغبةً في التصدّي للتوسُّع العثماني، خصوصًا بعد سقوط القسطنطينيّة على يد الأتراك سنة 1453، وذلك لاسترجاع ثقة المسيحيّين من ناحيّة ونشر الدّيانة المسيحيَّة في المناطق الجديدة المُكتشفة من ناحية أخرى. إذ إنَّ مُواجهةَ المسلمين لقرون طويلة، أدَّى إلى ترسيخ العقليّة الصّليبيّة لدى سكان شبه الجزيرة الإيبيريّة (الإسبان والبرتغاليّون) وكذلك الشّأن بالنّسبة للفرنسيّين والإنجليز. فلا غرابة أن تكونَ هذه الرّحلاتُ الاستكشافية التوسُّعيّة امتداداً للحروب الصَّليبيّة التي اصطبغت من وجهة نظر ملوك أوروبا بمرجعيّة دينيّة للدّفاع عن «القضايا العادلة وحماية اللَّه»[3]. وفي السّياق ذاته تعزَّزت أيضًا روح الحملات التبشيريّة لدى رجال الكنيسة، الذين تسيطر عليهم فكرة التّنصير دون اللّجوء إلى العنف، من خلال حملات التّبشير، ومن ثمّة يتأكَّدُ أنَّ الرغبةَ في ضمِّ أراضٍ جديدةٍ هو كذلك بهدف نشر «الإيمان الحقيقي»، للحدِّ من انتشار الإسلام[4].

1 - Thomazi, A. 1961, p.65

2 - Lebrun, F. 1999, p.29

3 - Corvisier, A. 1999, p.283

4 - Lebrun, F. 1999, p.29

وتبرز الصّبغة الدّينيّة للبعثات «الاستكشافيّة» في ما أفصح عنه كريستوف كولومبس في مُذكّراته حول رحلته الأولى لسنة 1492: قائلاً: «إنَّ سموّكم، كاثوليكيين ومسيحيين وأمراء تُحبُّون العقيدةَ المسيحية وتَتُوقون لرؤيتها تتوسُّع، وكأعداءٍ لملَّةِ مُحمَّد وكلّ الوثنيّين والهراطقة، والذين رأوْا أنَّهُ من المُناسب أن يُرسلوني، إلى الأجزاء المُسمَّاة بالإندِيز للنّظر في الطّريقة المُمكِنة لتحويلهم إلى عقيدتنا المُقدَّسة»[1].

3 - العواملُ التّقنيّة والعلميّة

لقد استفادَ الأوروبيّون من المعارف والتّقنيات[2] العلميّة والخبرات[3] الحاصلة في الشرق والصّين وخاصَّة لدى العرب، في تطوير تقنيات الملاحة البحريّة وتدعيمها وتحسينها واستعمالها. ومن مظاهر هذا التطوُّر، تصميم بناء سفن جديدة مثل سفينة الكارافيل[4]، إضافة إلى إدخال تحسينات على البوصلة والإسطرلاب وهما: من أدوات الملاحة التقليديَّة، ممَّا أتاحَ معرفةَ مواقع السُّفن ومساراتها في البحار، ورسم الخرائط والمُرشدات البحريّة، وتحديد موقع القارَّات ومعرفة الطّرقات المُؤدِّية إلى السَّواحل بطريقةٍ أفضل[5].

وكان لرواج نظريّة كرويّة الأرض التي دعا إليها بطليموس منذ القرن الثاني قبل الميلاد، أهميّةٌ كُبرى في تطوير تمثيلٍ دقيقٍ للأرض الذي أثبت إمكانيّة تجاوز إفريقيا والوصول إلى آسيا من الغرب[6].

4 - العواملُ الثقافيةُ: الطُّموحُ وحبُّ المُغامرة

لا شكَّ أنَّ الفضولَ وحُبَّ المُغامرة كانَا من بين الأسباب التي دفعت بعضَ ملوك أوروبّا والمستكشفين إلى خوض هذه المغامرة. فمنذ القرن 13م، اطّلع الأوروبيون على حضارات بلدان الشرق الأقصى بفضل «كتاب العجائب» الذي كتبهُ تاجرُ البندقيّة ماركو بولو سنة 1298، الذي زارَ الصينَ والهند والهند الصينيّة (من 1271 إلى 1291)، وأكَّدَ أنَّ هذه البلدان غنيّةٌ بالتوابل والذّهب

1 - بْرَيَر، 2004، ص 86

2 - Corvisier, A. 1999, p.283

3 - Lebrun, F. 1999, p.28

4 - Lebrun, F. 1999, p.28

5 - Thomazi, A.1947

6 - Lebrun, F. 1999, p.28

والألماس والأحجار الكريمة. وقد ساهم هذا المُؤَلَّفُ في اتّساع خيال وفضول بعض البحّارة لاكتشاف خيرات وكنوز هذه المناطق النّائية، وأغرى العديدَ منهم إلى الانطلاق في مغامرة نحو المجهول. وهكذا، فقد تأثّر الأوروبيون بالقصص الأسطوريّة التي انتشرت على مدى قرون حول هذه البلدان الشرقيّة المجهولة الغنيّة بالثروات[1]. من ناحية أخرى، تمكّنَ الأوروبيون بفضل اطّلاعهم، من خلال ترجمات العرب للعديد من المؤلّفات اليونانيّة القديمة على بعض النّظريّات وتبنّيها ونشرها، ومن أهمّها نظريّة كرويّة الأرض التي دعا إليها بطليموس منذ القرن 2 ق. م.

II. التوسُّعُ الأوروبيُّ في "أمريكا" وأشكال التّنكيل من القرن 15م إلى القرن 17م

اتَّخذَ اتّصالُ الأوروبيّين بالسّكّان الأصليّين منذ نهاية القرن 15م طابعًا توسُّعيًّاً استيطانياً، على حساب قبائل الإنكا والمايا والأزتاك المُستقرِّين بأمريكا اللاتينيّة، وقبائل الإسكيمود-ألْيوت Esquimaude-aléoute (Inuite) وقبائل ألجونكويان Algonquinne، وقبائل إيروكويان Iroquienne[2]. بأمريكا الشّماليّة، لكن، سنحاولُ قبلَ الخوض في دراسة أشكال وطرق التنكيل والوحشيّة، تقديم نبذة عن التوغُّل الإسباني والبرتغالي والفرنسي والإنجليزي دون التعمُّق في المُواجهات الاستعماريَّة وردود فعل السّكّان الأصليّين، وسنقتصرُ على دراسة مثالين إثنيْن: التوسُّع الإسباني الذي يُعدُّ أولَ توغُّلٍ «استطلاعي» بأراضي أبيا يالا، والتوسُّع الفرنسي الذي راوح بين المبادلات الاقتصادية والعنف مع السّكّان المحليّين. فالأمر لا يتعلق بإعادة بناء تاريخيٍّ للأحداث في الأمريكيّتين خلال العصر الحديث، بل محاولة تقديم نظرة عامّة حول العلاقات التي اتّسمت غالبًا بالصِّراع والمواجهة بسبب انتهاج العناصر الوافدة سياسة أساسها القّوة والعنف لإخضاع العناصر المحليَّة والهيمنة عليها.

1 - التوسُّعُ الأوروبيُّ في «أمريكا»

لقد حدَّدَ استعمارُ الدول الأوروبية «لأمريكا» طبيعة علاقة الهيمنة على السّكّان الأصليّين، وفقًا لمنظور التفوُّق العرقي- الحضاري، إذ كان الأوروبيّون يعدُّون أنفسهم رمزَ التقدّم والإنسانية، في حين

1 - Lebrun, F. 1999, p.30

2 - El Kenz, D. 2005

كان يُنظرُ إلى السّـكَّان المحلّيين على أنّهم برابرة ومُتوحّشـون[1]، لذلك برَّروا قدومهم وتوسُّعهم برغبة نشر الحضارة الأوروبيّة والدّيانة المسـيحيّة في هذه المناطـق، مُتجاهلين بذلك حضارة وديانة القبائل الأولى في هذه المنطقة. بدأت الحملاتُ الاستعماريَّةُ الأوروبيَّة لأمريكا مع الإسبان الغُزاة، والتي ضمَّت مُختلفَ الفئات الاجتماعيّة، بما في ذلك الجنود السابقين ورجال الدّين[2]. وبدأت أولى «الاكتشافات» مع غزو كريستوف كولومبس لهايتي في 28 أكتوبر 1492، التي أطلق عليها اسم هيسبانيولا، مُعتقدًا أنّه وصل إلى الهند، وسمَّى سكانهم خطأً بـ «الهنود الحمر». وأعقبتها مجموعةٌ من الحملات الاستيطانيّة مع رحلته الثّانية سـنة 1493-1496م، وتواصلت مع بقيّة رحلاته من سنة 1498-1500 و1502-1504م، التي كانت بداية تركيز المستوطنات الإسبانيَّة والتقدُّم في عمق البلاد[3]. وقد تمكَّنَ «الكونـكيـسـتـادور» (Conquistadores) منذ مُنتصف القرن 16م وبداية القرن 17م من إحكام السـيطرة ومزيدٍ من عمليات التغلغل لاسـتعمار الجزر والمقاطعات في بحر الكاريبي وفي أمريكا الوسطى والجنوبيّة[4]. لقد نجحَ الإسـبانُ في إرساء قواعد الاستغلال الاستعماري بكُلِّ وحشـيّةٍ، مُستفيدين من دعائم قوّتهم العسكريّة المُسـتندة إلى الخيول والمدفعيّة، لإخضاع السّكَّان والاسـتحواذ على أراضي شاسعة بأمريكا اللاتينيّة وتحويلها إلى مجالات جديدة للاسـتيطان البشري والاسـتغلال الاقتصادي، مـمَّا فتحَ المجالَ لتدفُّق المُستوطنين، بدافع البحث عن الثّروة والمكانة الاجتماعيّة والسّلطة[5].

انطلقت الحملاتُ التوسُّعيّة للبرتغاليين بداية من سنة 1500م، وتمكَّنوا من الوصول إلى أمريكا اللاتينيّة، وتحديدًا إلى السّـاحل الشّرقي أو ما يُعرف اليوم بالبرازيل على يد بيدرو ألفاريز كبرال (Pedro Alvares Cabral)[6]. وتمَّت السيطرة عليها كُليّاً سنة 1540 [7]، مُتّبعًا السّياسة التوسعيّة

1 - Leforestier, C. 2012, pp.3738-

2 - Corvisier, A. 1999, p.283

3 - بْرَيَر، 2004، ص81

4 - تضمُّ جزيرةُ سان خوان، جزيرة جامايكا، جزيرة كوبا، الجانب المُسمَّى فلوريدا، مقاطعة نيكاراغوا، إسبانيا الجديدة، مقاطعة غواتيمالا، مملكة يوكاتان، مقاطعة سانتا مارتا، مقاطعة قرطاجنّة، ساحل اللؤلؤ وباريا، جزيرة ترينيداد، الساحل من باريا إلى خليج فنزويلا، من نهر يوبا باري، من ريو دي لا بلاتا، من المقاطعات الكبيرة في بيرو، من مملكة غرناطة الجديدة؛ وهي الأسماء التي استخدمها دي لاس كاساس في كتابه.

5 - بْرَيَر، 2004، ص83

6 - بْرَيَر، 2004، ص 81

7 - Boqueho,V. 2020

الوحشية نفسها تجاه السّكّان الأصليين.

أمّا بالجزء الشّمالي من «أمريكا»، فقد سعت كُلٌّ من الإمبراطورية الفرنسيّة والإنجليزيّة إلى شنِّ حملات توسُّع، أفضت إلى إخضاع قبائل الإيروكوا والهورون والسّيوكس. ولأنَّ الهاجسُ الأساسي لتنظيم هذه الحملات، كان هو الرّغبة في الهيمنة والاستغلال الاقتصادي، فإنَّ ذلك طرحَ العديدَ من الصُّعوبات والعراقيل أمام الغزاة الأوروبيين، نظرًا إلى تشتُّت وانتشار القبائل على مساحات شاسعة[1]، وهو ما دفع كُلٌّ من الفرنسيين والإنجليز خلال القرن 16م وبداية القرن 17م إلى وضع استراتيجيّات الغزو والهيمنة بهذه المناطق، وانتهاج سياسة مُغايرة تراوح بين المرونة والقوة، مقارنة بحملات الإسبان والبرتغاليين بأمريكا اللاتينيّة.

انطلقت حركةُ التوسُّع الفرنسي منذ نهاية القرن 15م وبداية القرن 16م (1534-1608) مع حملات جون كابوت، الذي قام برحلتين انطلاقاً من بريستول لاستطلاع سواحل كندا. كما تمكَّنَ جون فيرازان (1485-1528) في عهد فرانسوا الأوّل من الوصول إلى كندا سنة 1524، التي أطلق عليها اسم «نوفا قاليا». وفي سنة 1534 تمكَّنَ جاك كارتييه من الاستيلاء على هذه الأراضي باسم ملك فرنسا[2]. وبلغ في السّنة التالية قرية "ستاداكوني" ثمَّ قرية "هوشيلاغا" اللّتان أصبحَتا تُعرفان لاحقًا مع بداية القرن 17م باسم كندا ومونريال. لكن رغم ذلك، فإنَّ جهودَ فرنسا المُتتالية لتوسيع مجالها الاستعماري آلت في النّهاية إلى الفشل في "كاب روج" (Cap Rouge) سنة 1543[3]. وعلى امتداد الحملات الثّلاث (1534 و1535-1536 و1541-1542)[4] التي قام بها جاك كارتييه للتوسُّع بكندا، والتي تلتها حركات استيطانيّة أخرى أفضت إلى الاستحواذ على أراضي جزيرة «سابل» وجزيرة «سانت كروا» وتأسيس ميناء «بورت روايال»[5].

أصبحُ الاستعمارُ الفرنسي أكثر عدوانيّة مع وصول صموئيل دي شامبلان إلى «سانت لورنس»،

1 - Corvisier, A. 1999, p.281

2 - وقد نصب على هذه الأراضي صليبًا، رسم عليه شعار زهرة الزّنبق، نُقشَ عليه «يعيشُ ملك فرنسا». يرمزُ شعار زهرة الزّنبق (fleurs de Lys) إلى الشرف والانتساب إلى مجموعةٍ أو عائلةٍ حاكمة. ويكون رسمُ زهرة الزنبق ناصعَ البياض، وهو يرمزُ أيضًا إلى شعار الملكية في فرنسا.

3 - Temdaoui, J.C., 2017, p.3

4 - Turgeon, L. 2019, p.8

5 - El Kenz, D. 2006

وإنشاء مستوطنة كيبيك على ضفاف النهر سنة 1608، إذ مثّل إنشاءُ هذه المُستعمرة بداية التأسيس الفعلي للاستعمار الفرنسي وتركيز أُسُسه على حساب قبيلة ألجونكوين[1]. لقد اتّضحت معالمُ استراتيجيّة الهيمنة الفرنسيّة بداية من هذه الفترة، إذ اقترنت بتنظيم الحملات العسكريّة من جهة، وتوقيع المُعاهدات مع السّكّان الأصليين من جهة أخرى، إضافة إلى مواصلة البحث عن طريق تجاريٍّ باتّجاه الغرب، اعتقادًا أنّهُ سيؤدّي إلى الصّين والهند. ومنذ سنة 1615، انطلقت أولى الحملات الدّينيّة إلى وادي سانت لوران، وشرّعت لممارسة العنف غير المُعلن باسم الدّين. كما كُلّفَ صموئيل دي شامبلان مُنذ سنة 1627م، بالإشراف على مشروع الاستيطان بناءً على أوامر الوزير ريشيليو، الذي عَمَدَ إلى توطين الفئات المُهمّشة بفرنسا، مثل اللّقطاء والمُجرمين والمحكوم عليهم بالسّجن والنّساء المُومسات أساسًا[2]، الأمرُ الذي يكشف النّوايا المُضمرة لممارسة العنف تجاه السّكّان الأصليين.

أمّا بالنّسبة إلى إنجلترا، فقد انطلقت حملاتها التوسعيّة بأمريكا الشّماليّة بداية من القرن 16م، حيث عرفت ثلاث رحلات: الأولى سنة 1584 بتكليفٍ من إليزابيت ملكة إنجلترا لوالتر رالي (Walter Raleigh)، والرحلة الثانية سنة 1586، والثالثة سنة 1587، لمحاولة تركيز مُستوطنات على السواحل الشماليّة. لكنَّ هذه البدايات كانت مُتعثّرة نظرًا إلى صعوبة التّعامل مع السّكّان الأصليين من قبائل الروانواك (Roanoacs) والكرواتان (Croatoans) والبوهاتان (Legrand)[3]. وقد بدأت مرحلة الاستقرار الفعلي منذ سنة 1607، على إثر تأسيس مستوطنة جيمستاون، (Jamestown) فرجينيا، اليوم على يد جون سميث «John Smith»[4]، ثمَّ تطوَّرت هذه العلاقات لتأخذَ أشكالَ مُبادلات تجاريّة قائمة على تجارة الفراء التي احتكرها التجّار والشركات، مُقابل الالتزام بجلب المُستوطنين لتطوير المُستعمرات، وتأسيس مدن- مُستوطنات مثل: كيبك (1608)، إضافة إلى بعث مراكز تجاريّة وإبرام تحالفاتٍ مع القبائل، في إطار مبادئ الماركنتيليّة، وهي استراتيجيّة فرنسيّة، راوحت بين مُعاملات بسيطة تقومُ على إظهار روح المحبّة والطّيبة للرجل الأبيض المسيحي،

1 - Temdaoui, J.C., 2017, p.3
2 - Yacoubi, R. 2012, p.588
3 - Powhatans، O.2013, p.4
4 - Turgeon, L. 2019, p.8

واستثمار طيبة السّكّان والتزاوج لبعث الطمأنينة والأمان، وصولاً إلى استعمال الحيل لبسط النفوذ وأخذ الأراضي... إلخ، وكلّ ذلك لم يقع بطريقة سلميّة، بل تمَّ عن طريق توظيف القوة والعنف [1]، كما أنَّ تضاربَ مصالح القوى الاستعماريّة الأوروبيَّة، دفع فرنسا إلى إبرام تحالفات استراتيجيّة مع قبائل الهورون لمواجهة قبائل الأيركواي المُعادية لها والمُتحالفة مع إنجلترا، لذلك كانت ازدواجيّة السّياسة الفرنسية في عقد التّحالفات مع بعض القبائل، وتصفية قبائل أخرى، تهدفُ إلى ضمان مصالحها الاقتصاديّة وتدعيم حضورها العسكري، استنادًا إلى التّفريق بين القبائل، الأمرُ الذي أفرزَ اندلاع حرب في سنة 1689، وضعت وجهًا لوجه القوى الاستعماريّة ومن ورائها القبائل الحليفة.

هكذا تمكّنت الإمبراطوريّات الاستعماريّة الأوروبيّة، عن طريق الغزو، من توسيع مناطق نفوذها ومجالاتها الحيويّة الاقتصاديّة والسياسيّة، ووظفت أشكالاً مُختلفةً من القوّة والعنف، اتّخذت وتيرةً تصاعديّةً، واختلفت أساليبها من منطقة إلى أخرى. فلم تكن المعاملات والعلاقات مع سكّان «أبيا يالا» على الوتيرة نفسها في الأمريكيّتين، لكنّ النتيجة كانت واحدةً، فظاعةُ ووحشيةُ الإبادة تجاه السّكّان الأصليّين.

2. مظاهرُ التعذيب والتّنكيل والإبادة الجماعيّة تجاه السّكّان الأصليّين: دلالات الفظاعة والوحشيّة

تعدُّ مظاهرُ الإبادة [2] الجماعيّة للسكان الأصليّين بأمريكا، في الفترة الحديثة، من حيث فظاعتها ووحشيتها، من المواضيع المسكوت عنها إلى يومنا هذا، فأغلبُ الدّراسات التّاريخيّة تتناولُ هذه المسألة باقتضابٍ دون التعمُّق في الممارسات اللاإنسانيّة المُرتكبة، وحتّى إن تمَّ التطرّق إليها في كتابات الإسبان والبرتغاليّين والفرنسيين والإنجليز الذين عاصروا الأحداث، فتبقى نادرة،وتتغاضى عن موضوع أشكال العنف. في المقابل، يعدُّ كتاب «تاريخ الهنود» لرجل الدّين «دي لاس كازاس» من الكتب النّادرة، إذ عاصر الأحداثَ عن قرب ونقلها كما عاينها خلال القرن 16م، فهو المصدرُ الوحيدُ الذي ذكر تصفية عشرات ملايين البشر على يد الأوروبيّين، واصفًا أعمالهم للدّوق «فيليب» أمير إسبانيا بـ«الشرور والآثام والدّمار والخراب لهذه الممالك الكبيرة»[3]. وقد فضحَ مُمارسات العنف وكشف عن بربريّة وهمجيّة الغزاة الذين كرّسوا نيَّة

1 - Temdaoui, J.C., 2017, p.3

2 - Kutlu, O., 2021

3 - De Las Casas, B. 1983, p.46

القتل والنَّهب والسَّلب، بسابق إضمارٍ وترصُّد، مُجسِّدين المقولة المنسوبة إلى فيليب شيريدان: «الهنـدي الطيب الوحيد هو الهندي الميّت»[1]، مقُولةٌ تُلخّصُ عقيدةَ المُسـتعمر الأوروبيِّ التي عملَ على ترسـيخها منذ بداية غزوه «لأمريكا»، وهي تكشـف نظرة الاسـتعلاء تُجاه الشـعوب المُسـتقرّة هناك، والتي نُعتت بالوحشيَّة والبربريَّة، مُناقضين تمامًا الوصف الذي قدَّمه دي لاس كازاس، حيث يعدُّهم بسيطين وطيّبين للغاية، يعيشون أساساً على الصّيد والزراعة، مُؤكّدًا أنّهم «مُطيعون ومُخلصُون، وهم مُسالمون لأنّهم بلا ضغينة ولا كراهيّة ولا رغبة لهم في الانتقام»[2]، بل هم (شعب) سهلُ الانقياد» (المصدر نفسه، ص74).

يحيلنا تضاربُ الآراء والمواقف حول مشروعيّة القتل والتنكيل أو إدانة ما تعرَّض له سُكَّانُ «أبيا يالا» الأوائل منذ نهابة القرن 15م وصولاً إلى القرن 17م، إلى دراسة الإبادة من منظورٍ تاريخيٍّ، وهي تشـمل ثلاثة مسـتويات: الإبادة الجماعيّة (Génocide)، والإبادة العرقيّة (Ethnocide)، والإبادة البيئيّة (Ecocide). وقد تمَّ اعتـمادُ مصطلح الإبادة الجماعيّة لأوّل مرَّة من قبل رافائيل ليمكين (Raphael Lemkin) سـنة 1944 ويشيرُ إلى فكرة المذبحة[3]. أمَّا مفهومُ الإبادة العرقيّة فقـد ظهر سـنة 1960 للدّلالة على القضاء على الجذور العرقيّـة لمجموعةٍ بشريّة، بل يمكن أن تُحيـل أيضًا إلى إبادة ثقافيّة ناجمة عن محو وطمس ثقافة ولغة مجموعة بشريّة، دون أن يهدف إلى القضاء عليها جسديّا.

ويشـيرُ مفهومُ الإبادة البيئيّة الذي ظهر في بداية الستينيات إلى تدمير النّظام البيئي[4]. في هذا السـياق، فإنَّ الاستيطان الأوروبي لم يتمّ بطرق سـلميّة، بل كان توسُّعًا قائمًا على توظيف القوّة وتكريس الهيمنة بمختلف أشكالها، إذ مثّلت سياسةُ التطهير العرقي في المُستعمرات الأوروبيّة شـكلاً من أشكال المحو والقتل طويل المدى، وهي سياسةٌ لا تقلُّ فظاعةً عن القتل الماديّ أو الاغتراب والاستلاب الثقافي[5]. وفي هذا الإطار يُعدُّ فريديريك دورال (Frédéric Dorel) أهمَّ

1 - Garrait-Bourrier, A. 2015, p.122
2 - De Las Casas, B. 1983, p.49
3 - Bellier, I.2021, p.2
4 - Bellier, I. 2021, p.2
5 - Clastres, p.2002, Vol. 8, pp. 888- 890

من أرّخ للمذابح التي عرفتها الإنسانيّة عبر التّاريخ، ومنها إبادة سكّان «أمريكا»[1].

وبالنّظر في اتّفاقية 1948، فإنَّ مصطلحَ الإبادة الجماعية، هو الأكثرُ استخدامًا وتداولاً للحديث عن مذبحة الشّعوب الأولى في أمريكا[2]. وقد تمَّ تعريفُ الإبادة الجماعيّة من قبل منظمة الأمم المتحدة في 9 ديسمبر 1948 المتُعلّقة بمنع جريمة الإبادة الجماعيّة والمُعاقبة عليها، على أنَّها جريمةٌ تُرتكب بقصد التّدمير كليّاً أو جزئيًا لمجموعةٍ قوميّةٍ أو إثنيّة أو عرقيّة أو دينيّة[3]، وهو التّعريف المُعتمد في القرن 20م، والذي يُؤكّدُ ويقرُّ ويعترف بحقيقة الإبادة في حقِّ السّكّان الأصليّين لأمريكا.

لقد قامَ التوسُّع الأوروبي بالأمريكيّين على مُمارسات عنيفة مُتعدّدة من حيث طبيعتها وأشكالها، إذ تراوحت مستويات العنف والقوة من أبسط أشكالها (العنف اللّفظي والإهانة والشتم والثلب واللّكم...إلخ)، إلى أقصى حالتها (التّشويه والتنكيل والتعذيب..إلخ.)، إلى درجة أنَّ الإفراطَ في ممارسة القوة، كان المُبررَ الأساسي لإبراز تفوّق المستعمرين الأوروبيين. فالرَّغبة في ترويض «الآخر» دفع إلى إتقان لغة السّكّان المحلّيين، ممَّا ساهم في توطّد العلاقات شيئًا فشيئًا، وتطوّرت المُعاملات تدريجيًا بينهما، وأصبحت المُقايضة تتمُّ بعيدًا عن الحذر، وتحوَّلت إلى مُعاملات تجاريّة[4].. وعليه تحوَّلت هذه الاستراتيجية الاستعماريّة من الاستطلاع والتبادل البسيط للبضائع إلى رغبة في التوطّن والهيمنة والاستحواذ.

وبذلك، فإنَّ عقيدةَ الاستعمار الفرنسي – مثلاً- كانت قائمةً على الخداع الواضح منذ الاتّصالات الأولى، إذ إنَّ الاتفاقيات المُبرمة والتّحالفات لم تكن سوى ذريعة للهيمنة ومدخلاً لبسط النّفوذ على أراضي الإينو واستعبادهم. ولم يكن الوضعُ بأحسن حالاً مع المُستوطنين الإنجليز[5]، إذ استمرَّ اغتصابُ الأراضي وانتهاك حقوق السّكّان الأصليّين وفرض سيادة مُطلقة عليهم[6].

وغالبًا ما يتمُّ اللجوءُ إلى تبريرات واهية، تعدُّ أنَّ مَا ارتُكب في حقِّ السّكّان الأصليّين رغم

1 - Dorel, F.2006, p. 5- 6

2 - Bellier, I. 2021, p. 2- 3

3 - Grondin, M. Viezzer, M. 2022, p. 15- 16

4 - Turgeon, L. 2019, p. 9

5 - Ross-Tremblay, P. Hamidi, N., 2013, p. 53

6 - Ross-Tremblay, P. Hamidi, N., 2013, p. 53

أشكال المذبحة الذي بلغته، لم ترتقِ إلى مستوى الإبادة الجماعيّة، ذلك أنّها لم تؤدِّ إلى القضاء النّهـائي على تلك المجموعات، بل تندرجُ تلك الممارسـات والأفعـال في إطار تغيير عادات السّـكّان وتهيئتهم لتنمية الأراضي واسـتغلالها، وهو ما ينفي نيّةَ ارتـكاب المذابح بما يتجاوز حتّى مفهوم جرائم الحرب. لقد روَّجَ هذه الفكرة عددٌ من المُؤرّخين، مُعتبرين أنَّ الحربَ وسيلةٌ من وسـائل الإخضاع، وليس للإبادة، لأنَّ الاختفاءَ المُطلق للسكان يُمثّلُ عائقاً اقتصاديًا يحولُ دون عمليّة اسـتغلال الأراضي المُصادرة. ولذلك فقد عمدَ تشـارلز الخامس الذي سـمحَ في البداية باسـتعباد السّكّان الأصليّين سـنة 1517، إلى منع هذه الممارسة سنة 1526، حتّى يكونوا أحرارًا ويُشـكّلون يداً عاملةً طيّعةً. وكذلك الشّأن بالنّسـبة إلى البابا بولس الثالث الذي أدان في مناسبتين متتاليين سـنة 1537 استعباد السّكّان الأصليّين وأكّد حقّهم في الحريّة والملكيّة. لكنّ عدم التمسُّـك بهذا الموقف والإصرار عليه وعدم الالتزام بالنّصوص الرّسميّة على مرِّ التّاريخ، لم يكن سـوى أداةً لتبرير استغلال سـكّان «أمريكا» وتهجيرهم، ممَّا يكشفُ ازدواجيّة السّياسة الاستعماريّة، ويُؤكّدُ ضلوعَ الاستعمار الأوروبي المباشر في التّخطيط لإبادة سكّان «أبيا يالا».

ففي أمريكا الشماليّة وإلى حدود نهاية القرن 15م وبداية القرن 19م، كانت إنجلترا، والولايات المتحدة الأمريكية، وفي إطار تبرير حركات التوسُّع الأوروبي، تُروِّج إلى نظرة مُفادها أنَّ السّكّان الأصليّـين هم رمز للشّرور، وذلك لدحض فكرة الاسـتيعاب، علاوة على أنّ الأوروبيين في نيو أنجلد (Nouvelle-Angleterre)، لم يكونوا في حاجة ماسّة – إلاَّ في حالات نادرة- إلى استعباد السّـكّان الأصليّين، بل كانوا يُريدون إجلاءهم للإشراف على الأراضي المصادرة واسـتغلالها بصفة مباشرة[1]. في المقابل، تُثيرُ الشّـهادات حول السّـكّان الأصليّين لأمريكا في القرنين 16م و17م، جـدلاً كبيراً حول عمليّـات النّهب والانتهاك والتّهجير والتّفقير والاسـتعباد والاضطهاد العرقي والثّقافي[2] دون أن تُقدّمَ تفاصيل عن فظاعة وقسـوة وعنف هذه الممارسـات، وخاصّة عن الإبادة الجماعيّة.

وفي إطار سحب المشروعيَّة للاستعمار الأوروبي، يُجيزُ جون قيناس دي سوبولفيدا (Ginés de Sepúlveda)، مُؤرِّخ الإمبراطور تشـارلز الخامس في كتابه «أسباب الحرب العادلة» (1543)

1 - Dorel, F.2006, p. 2

2 - Dorel, F.2006, p. 2

استعباد سكّان أمريكا وتحويلهم إلى الدّيانة المسيحيّة مُشيراً إلى أنَّ: «(...) هؤلاء الرِّجال الصِّغار، هم بشر مُتواضعون للغاية، يفتقدون إلى العلوم والفنون، وليس لهم أيُّ نُصب تذكاري سوى بعض اللّوحات ذات الاستحضارات غير الدّقيقة، ليس لهم قوانين مكتوبة، بل عادات وتقاليد همجيّة وبربريّة فقط، حتَّى أنَّهم يجهلون حقوق الملكيّة»[1]، ولا يُنظر إليهم على أنّهم بشر، بل فصيلٌ من «بهائم»[2] ومتوحّشون يجبُ القضاء عليهم. وعليه، يبقى بارتولومي دي لاس كاساس من بين الشهادات النادرة التي تكشف هذه الإبادة الجماعية بأدقّ تفاصيلها في كتابه: «سردٌ مُختصرٌ جدًا لتدمير جزر الهند»، الذي نُشر عام 1543، حيث يُندِّدُ بظلم هذا الاستعمار، من خلال تسليط الضّوء على قسوة مُمارسات وأفعال الغزاة الأوروبيين تجاه سكّان «أمريكا» الأوائل[3].

ويستمرُّ هذا التّعتيمُ عن حقيقة التوسُّع الاستيطاني بأمريكا فيما أفاد به مارك ليسكاربوت (Marc Lescarbot) المُحامي في البرلمان الفرنسي، والذي رافق شامبلان في رحلاته الأولى إلى كندا، إذ تجاهل في كتابه «تاريخ فرنسا الجديدة» (1609) الفظائع المرتكبة، واقتصر على وصف المُبادلات البسيطة والسّلميّة بين الفرنسيّين والسّكّان الأصليّين، مُعتبراً أنّ ذلك مثّل الوسيلة المُفضّلة للتّبادل والتّواصل والتّعارف وتقييم الآخر والانجذاب إليه، لكن باتّجاه واحد محوره الأوروبيّ-المتحضّر. ولئن عُدَّت هذه المبادلات التّجاريّة قد أثّرت في السّلوكات والممارسات المتولّدة عنها وحدّدت الطّبيعة النّفعيّة بالنّسبة إلى الطّرفين[4]، فإنّها نظرة لا تخلو من مغالطة تاريخيّة طغت على مواقف وآراء غُلاة الاستعمار لإضفاء الطّابع الإنساني السّلمي على هذا التوسُّع.

ولنا أن نستجلي حقيقةً، وهو أنَّ الاستعمارَ الأوروبيَّ كان مهوُوساً بامتلاك الذّهب وتضخيم الثّروة في وقت قصير بالاعتماد على عدّة استراتيجيّات: الاحتيال والمكر والخداع، من خلال التخفّي وراء المقايضة كوسيلة للاتّصال والتّبادل، ونسج العلاقات الوديّة وإبرام المعاهدات التجاريّة لسرقة

---

1 - Bellier, I.2021, p.2- 3

2 - De Las Casas, B. 1983, p.52

3 - كاتب إسباني (1470-1556)، شغل منصب كاهن في كوبا سنة 1512 وأسقف في المكسيك سنة 1543. اهتم «بالهنود» وأسس لهم مستعمرة زراعية. ألّف هذا الكتاب للإمبراطور تشارلز الخامس، والذي دافع فيه دي لاس كأساس عن «الهنود»، ضد سوء المعاملة، وندَّدَ بالمذابح التي ارتكبها المستعمرون الإسبان. يعود تاريخ رواية دي لاس كاساس إلى عام 1541، أي بعد 49 عامًا من «اكتشاف» كريستوفر كولومبوس لجزر الهند وتأسيس الإمبراطورية الاستعمارية الإسبانية في «أمريكا».

4 - Turgeon, L. 2019, p.10

أملاك السّـكَّان الأصليّين بطريقة أفضل. ولتحقيق ذلك، لجأ الغُزاة منذ بداية التوسُّع في «أمريكا» إلى ارتكاب مختلف الممارسـات العنيفة والمُهينة للسـكّان الأصليّين الذيـن كانوا يتعرَّضون إلى الجلد بالسّـوْط والضّرب بالعصيّ واللّكم والشّتم...[1]. ثمَّ تطوَّرت درجةُ العنف وأصبحت هذه المُمارسات أكثر حدّة وشرورًا وآثامًا ودمارًا وخرابًا[2] ليس من قبل الإسبان فقط، ولكن أيضًا من قبل الفرنسيّين والإنجليز، الذين ارتكبوا شتّى أنواع السّرقة والنّهب والمجازر[3].

وقد أدَانَ دي لاس كاسـاس هذه الممارسات اللاإنسانيّة، مُشيرًا إلى فظاعة الطّرق المُعتمدة للقيام بهذه الأفعال: «إنّهم يمُزّقونهم إربًا، ويقتُلونهم ويَقْلُونَهُم ويُؤْذُونَهم ويعذِّبُونهم ويُدمّرونهم بقَسوةٍ غريبةٍ ومُتنوّعة وغير معهودة لم يسـبق لها مثيل من قبْـلُ (...)»[4]. وهذه الصّورُ الدّمويّةُ يُلخِّصها دافيد اسـتنارد في إطار الحديث عن تداعيات الغزو وأشكال العنف، حيث يُؤكّدُ أنَّ المشهدَ كان: «مُخيفًا أن نَراهم يُقْلُونَ في النّار وتيّارات الدّم تطفئ نفسها، وكانت الرّائحة الكريهة فظيعةً (...). لكنّ النّصرَ بدَا ذَبيحةً حُلوةً»[5]. كما يحدث أن تتّخذَ هذه الفظائع أشكالاً أخرى، مثل الإقدام على حرق الأسرى أحياءً أو يتمُّ شِواؤهم على النَّار، وهو تعذيبٌ وتنكيلٌ يتمُّ ببطءٍ للتلذّذ بمشاهدة هذه الصّور الدّموية وآلام الأشخاص. وقد تصلُ هذه الفظائع إلى حدٍّ يُنذرُ بالخطر بالاستمتاع بتعذيب رئيس قبيلة، الذي « تمَّ ربطه (...) وأشعلوا النّار تحت قدميه حتَّى خرج نخاعه من باطن قدميه[6]، إضافة إلى استعمال الكلاب المُروَّضة في عمليات التّنكيل والتّعذيب وتدريبهم على تمزيق أجسـام الأشـخاص في أسرع وقت [7]. وفي السّياق نفسـه يواصل دي لاس كاساس إبرازَ أنَّ التّعذيبَ اتّخذَ أشكالاً مُتنوّعةً، وأنَّ ما أورده لا يُمثّلُ سوى جزءٍ من الألف ممَّا رآه وعايَنَهُ[8]. ثم يؤكد: «لقد قتلوا وأحرقُوا وشوَوْا وألقوا النّاس إلى الكلاب الشّرسة»[9]، وأُجبر السّكَّان على العمل القسري[10]، مُضيفًا:

1 - De Las Casas, B. 1983, p.64
2 - De Las Casas, B. 1983, p.46
3 - De Las Casas, B. 1983, p.53
4 - De Las Casas, B. 1983, p.50
5 - Stannard, D.1993, p.114
6 - De Las Casas, B. 1983, pp.5455-
7 - De Las Casas, B. 1983, pp.55 -56
8 - De Las Casas, B. 1983, p.61
9 - De Las Casas, B. 1983, p.64
10 - Dorel, F.2015, p.3

«هاجموا القرية وأضرموا النّار في المنازل، وأحرقوا الأطفالَ والنّساءَ والعديدَ من الرّجال أحياءً قبل أن يعودوا إلى رشدهم. كما تمَّ استخدام المكر والحيلة لحرق 300 شخصاً من قبيلة كزاراغوَا (Xaragua) في منزل من القشّ، والباقون قُتلوا بالرّماح وآخرون بالسّيوف»[1]. لقد قتلوا من أرادوا وعذّبوا حتّى الموت من أخذوهم أحياءً لجعلهم يشيرون إلى قرى أُخرى ومناطق أخرى بها الذّهب (...)، أمَّا أولئك الذين بقَوْا أحياءً فيَسِمُون عليهم بمَيْسَمٍ من حديد شارة الرقّ»[2]، في حين أصبحَ آخرون خَدَمًا بين سنة 1514 و1522 [3].

كما عانت قبائلُ الغواراني (Guarani) والتوبيناميا (Tupinamba) بأمريكا الجنوبيّة من ويلات الغزو البرتغالي، الذي أتىَ على تدمير وإحراق الآلاف من القرى إلى درجة ترى فيها الجُثث مُتناثرة على طول الشـواطئ، تحت مُبرِّر الانتقام من المقاومة التي أبداها السّكّان الأصليين[4]. وكذلك قام المستوطنون الفرنسيّون سنة 1665 في إطار إخضاع قبائل الأيروكوا (Iroquois)، بتوجيه حملات عسكريّة واجتياح أراضي منطقة «الموهوك» (Mohawk) وإحراق القرى والمحاصيل. وتواصلت هذه الاعتداءات العنيفة وعمليات التّنكيل بالسّكّان في ثمانينيات القرن 17 (1680)[5].

وهـذه الممارسـات التدميريّـة، لم تكن تهدفُ إلى إحكام السـيطرة على أكـثر ما يمكن من المجالات الشّاسعة التي كانت مناطق جذب وإغراء بالنّسبة إلى القوى الاستعماريّة المُتنافسة، بل إلى محو الوجود البشري بهذه المناطق.

كما أشـارَ بعضُ المؤرِّخين إلى تعدُّد وتنوُّع الاسـتراتيجيات المُعتمدة في المجازر المُرتكبة من قبل المستعمرين الأوروبيّين، فبعد أن أوْهَمَ المستوطنون بعض السّكّان بدعوتهم إلى وليمة، قامـوا بذبحهم، «شـكرًا لله الذي أعانهم عـلى القضاء على المُتوحِّشـين»[6]. كما وصلت هذه الفظائع إلى حدِّ مُباغتة السّكّان ليلاً وأسرهم وحرق القرية بأكملها، ولم يسلم منها سوى 5 أفراد تمَّ سلخُ فروة رؤوسهم بعد القبض عليهم[7].

1 - De Las Casas, B. 1983, p.60
2 - De Las Casas, B. 1983, p.71
3 - De Las Casas, B. 1983, p.60
4 - Grondin, M. Viezzer, M. 2022, pp.15- 16
5 - Beaulieu, A. 1997, p.42
6 - Kutlu, O. 2021
7 - Baddeley, S. 2011

كما شـملت هذه المُمارسـات أيضًا اختطاف النّسـاء والأطفـال، ما بين 70 و80 فتـاة وامرأة[1] وعزلهم عن عائلاتهم والاعتداء عليهن بالضَّرب واللّكم والاغتصاب، ونزع أحشاء النّساء والفتيات الصغـيرات، ولم يتركوا أحدًا على قيد الحياة ولم يسـلم أحدٌ من شرور أفعالهم[2]. وكما شـملت هذه الممارسـات الوحشيّة زعماءَ القبائل، و»وصل تهوُّرهم ووقاحتهم إلى درجة أنَّ قبطانًا مسيحيّا اغتصب زوجة كبير زعماء القبائل بالجزيرة». وكان المسـتعمرون الإسبان يتفنّنون في أعمال القتل والتعذيب، إذ بلغت مُمارسـات العنف ذروتها « في القرى ولم يتركوا أطفالاً ولا شـيوخًا ولا نساءً حوامل لم ينزعوا أحشاءهم ويمزّقوها إربًا، كما لو كانوا يُهاجمون الحِملان». كما أصبحوا يتسلَّوْن في التّنكيل بالأشخاص: «لقد راهنوا على من سيقطع الرّجل بسكّين، واختطفوا الأطفال الرضّع من أمّهاتهم وأمسكوهم من أقدامهم وضربوا رؤوسهم بالصّخور وألقوا بآخرين في الأنهار (...) وصنعوا مشـنقة طويلة، حيث تـكاد الأقدام تُلامس الأرض في مجموعات مـن ثلاثة عشر لتبجيل وتكريم المولى والرّسـل الإثني عشر، وأشـعلوا النّارَ فيهم فأحرقوهم أحياءً. وقام آخرون بربط أجسـادهم بالكامل بالقشّ الجافّ وإشعال النّار فيها، وهكذا أحرقوهم. أمَّا من أراد النّجاةَ بحياته فقد تمَّ تقطيعُ أيديهـم وهم أحياءٌ»[3]، وتمزيق البعض الآخر إلى أشـلاء، والقبض على من حاول الهرب من هذه المذابح وتحويلهم إلى عبيد[4].

ويُصوِّرُ روسـال تورنتون ردودَ الفعل على فظاعة التّنكيل بالسّـكّان الأصليّين، بعد أن تحوَّلوا إلى غرباء في أراضيهم مُهدّدين في وجودهم والموت المحتوم يُهدّدهم: « أنا مجروح، ومِن قبل مَـنْ، مِن قِبل البيض أنفسـهم الذين كنت اعتبرهم، وأعاملهم دائمًـا كإخوة، لا أخشى الموت يا أصدقائي. أنت تعرف ذلك، ولكن أن أموت ووجهي مُشوَّه، حتى الذئاب سوف ترتدُّ برعب عند رؤيتي (...). استمع جيدًا إلى ما يجب أن أقوله، لأنها ستكون المرة الأخيرة التي تسمعني فيها»[5].

---

1 - De Las Casas, B. 1983, pp.54- 55

2 - De Las Casas, B. 1983, pp.72- 73 / بالنسبة إلى بعض القبائل، يُعدُّ قتلُ «إيرا» (Ira) (الاسم الذي يُطلقُ على النساء لدى بعض القبائل)، علامة على القسوة والوحشية البغيضة بين الرِّجال، نظرًا إلى مكانة المرأة/الأمّ في هذه المجتمعات.

3 - De Las Casas, B. 1983, p.55

4 - De Las Casas, B. 1983, p.64

5 - Thornton, R. 1987, p.99

ومن هنا أصبح «الهنود» يُفكِّرون في طرد المسيحيّين من أراضيهم»[1]، وعندها قام البعضُ من الأهالي بمطاردة الغزاة ومحاولة البحث عن زوجاتهم وبناتهم وحماية ذويهم[2]. لكن يُقرُّ دي لاس كاساس، أنَّ ردودَ الفعل على هذه الفظائع نادرةٌ لأنَّها تُؤدِّي إلى أفظع منها، لأنَّ قتل مسيحيٍّ واحدٍ يترتّب عنه قتل مائة شخص من السّكَّان[3].

لقد أدَّت المذابحُ والمجازرُ التي قام بها الغُزاة الإسبان إلى فرار السّكَّان ولجوئهم نحو الشّمال والجنوب[4] ونحو شواهق الجبال والغابات الكثيفة خوفًا من البطش والظّلم المُسلّط عليهم. لكن المؤكّد أنَّ عنفَ هذه الأفعال وقساوتها، أدَّت في النّهاية إلى تجريدهم من أراضيهم وجميع ثرواتهم: «وهكذا أخذ المسيحيّون من ‹الهنود› الأراضي التي كانت لهم والممتلكات التي كانت تدعمهم»[5]. لقد قامت استراتيجيّة الغُزاة الإسبان على شنِّ حروبٍ قاسيةٍ ودمويّةٍ ضدّ السّكَّان الأصليّين، ممَّا سمحَ لهم باستعمار الجزر وتنصيب أنفسهم أسياداً عليها ومالكين لها[6]، فقد كانوا أوّل من استوطن جزيرة اسبانيولا (Hispaniola) بعد تصفية الجزء الأكبر من سكانها وإجلائهم ضمن استراتيجيّة قائمة على التّدمير ثمّ التّهجير[7]. كما شهدت نيكاراغوا (Nicaragua) المصيرَ نفسه من الدَّمار والقتل والاستعباد النّاجم عن التوحّش الأوروبيّ[8]. ثم كان يُعمدُ إلى عزل النّساء والفتيات والأطفال وتقسيمهم إلى مجموعاتٍ على المستوطنين واستخدامهم كعبيدٍ في الحقول. في حين كان يتمُّ إرسالُ الرّجال للعمل في مناجم الفضّة بالمكسيك والأرجنتين والذّهب بالبيرو، إذ كان «يُقيّد العمال بالسّلاسل في أعناقهم حتّى لا يتركوا الأحمال الثقيلة التي على ظهورهم. وقد يُضطرُّ إلى قطع أعناقهم في حالة التّعب أو

1 - De Las Casas, B. 1983, pp.54 - 55

2 - De Las Casas, B. 1983, pp.72- 73

3 - De Las Casas, B. 1983, p.56 / لا نُبالغ إذا اعتبرنا التَّشابُهَ الكبيرَ بين ما حدثَ من إبادة «بأمريكا» وما يحدثُ من إبادة بقطاع غزَّة إثر انطلاق «طوفان الأقصى» في 7 أكتوبر 2023، إذ تجلَّت الرَّغبة الانتقاميَّة الصّهيونيّة في تصفية (إلى حدِّ يوم 18 جانفي 2024) ما ينوف عن 30 ألف قتيل فلسطيني وأكثر من 60 ألف جريح بغزّة انتقامًا لفقدان 1400 إسرائيلي. سؤالنا هل ستتوقّفُ آلةُ الحرب الانتقاميّة الصّهيونيّة عندما يبلغ عدد القتلى الفلسطينيّين 140 ألف بترتيبات الغُزاة الإسبان بأمريكا اللاتينيّة في القرن 16م (قتيل واحد من الغُزاة مقابل 100 قتيل من السكان الأصليّين)؟

4 - De Las Casas, B. 1983, p.71

5 - De Las Casas, B. 1983, p.76

6 - De Las Casas, B. 1983, p.52

7 - De Las Casas, B. 1983, p.54

8 - (De Las Casas, B. 1983, p.74

الإصابة أو السّقوط بسبب الجوع والإجهاد والضّعف والمرض، حتّى لا يتكلَّفوا عناءَ فكِّ قيودهم»[1] ومارسوا ضدّهم كُلَّ أساليب الازدراء والتّجويع، فكانوا يُقدِّمون لهم الأعشاب تشبيهًا لهم بالحيوانات، ويحرموهم من الأكل حتّى يجفَّ الحليب في أثداء النّساء اللاتي ما كنّ يَلِدْنَ حتّى يموت الأطفال بسرعة بسبب الإهمال، وأحيانًا تضطرُّ المرأةُ إلى قتل طفلها لتأكلهُ بسبب الجوع[2].

كما أُخضع النُّسوة العاملات في المزارع، والرِّجال في المناجم إلى السُّخرة، بعد أن تمَّ تقييدهم بالقوة وإرغامهم على العمل، وكانوا يموتون من الإرهاق والجوع، في حين يُقتلُ كُلُّ من يحاول الفرار[3]. وبذلك فَقَدَ المحلّيون حرّيتهم، وأصبحوا يعانون أشدَّ أنواع القمع والعبوديَّة وأكثرها قسوة، ممَّا خلَّف آلاف الضّحايا وتهجير وإخلاء التجمُّعات السّكَّانيّة والاستحواذ على أراضيهم وممتلكاتهم، بحيث لم يبقَ أيُّ أثرٍ أو علامةٍ على وجود سكّان في هذه المناطق[4].

نستنتجُ إذن، أنَّ السّياسة القمعيّةَ التي توخّتها كُلٌّ من إسبانيا والبرتغال وفرنسا وإنجلترا، لا تختلفُ في أساليبها وفي غاياتها التّدميريّة، رغم أنَّ عدداً من المؤرّخين يعدُّون أنَّ الاستعمارَ الإسباني أكثر وحشيّةً، والاستعمارُ الفرنسي أكثر لينًا من الاستعمار الإنجليزي[5]. وفي حقيقة الأمر نقفُ على انتهاج استراتيجيّة التّخريب والتّعذيب والحرق والسّرقة والاستعباد والقتل نفسها في كُلٍّ من الأمريكيّتين. وهكذا قامَ الأوروبيُّون بإبادة الشّعوبِ الأصليَّة بالأمريكيّتين منذ بداية القرن 16م وصولاً إلى القرن 18م، بدعم من دُوَلهم، متّخذين الدّين غطاءً لهم. ولذلك فقد مثَّلَ المُقدّس مطيّة لهذا العنف الشّديد، والدَّافع الأساسي لارتكاب الفظائع والمجازر، ومُبررًا «أخلاقيًّا» لسياسة التعسُّف والقتل والتَّنكيل.

لقد تأسَّست الإبادةُ والتَّطهيرُ العرقي[6] للسكّان الأوائل لأمريكا في المنظور الأوروبيّ على منطق الاستعلاء والتفوُّق الحضاري والثَّقافي والعرقي مُقارنة بالأجناس الأخرى. وهذا التّصنيف يكشفُ الجانبَ العدائي في شخصيّة الغازي الأوروبي وتجذُّرُ النّزعةُ الإقصائيّةُ[7] في سلوكاته

1 - De Las Casas, B. 1983, p.75
2 - De Las Casas, B. 1983, p.76
3 - De Las Casas, B. 1983, p.62
4 - De Las Casas, B. 1983, p.73
5 - Delâge, D.2002, pp. 1343- 1344
6 - Grondin, M. Viezzer, M. 2022, p. 216
7 - El Kenz, D. 2005

ومُعاملاته. ووفقًا لهـذا التصوُّر تجرُّد الأوروبيّين من كُلِّ الضّوابط الأخلاقيّة والإنسـانيّة للقيام بهذه الممارسات الانتقاميّة والوحشيَّة التي أخذت أشكالاً مُختلفةً من التّعذيب والتّنكيل، مسَّت الإنسانَ في كينونته (الذبح والحرق وتقطيع الأعضاء والسلخ وانتزاع الأحشاء والتّجويع...إلخ)، وانتهكت الأرضَ (تدمير القرى وحرقها وسلب الأراضي وتقسيمها وتكوين مُستعمرات لاستيعاب المُهاجرين الجُدد...إلخ)، ودمَّرت الطّبيعة (تدمير أساليب الحياة عن طريق الاستغلال المُفرط، للـثروات الطبيعيَّة الحيوانيَّة والبحريَّة والمنجميّة..إلخ.). وحُوصرت الثقافة (التغريب التّهجين والمحـو والدَّمج في الثَّقافة الأوروبيَّة). وبذلك أدَّت هذه المُمارسـات اللاإنسـانيّة إلى الإبادة الجماعيّة المُمنهجة لسـكان «أبيا يالا»، وإلى طمسِ هويَّتهـم الثّقافيّة والحضاريّة التي لازالت من المواضيع المسكوت عنها.

III. نتائج الإبادة: بين المرويّ والمسكوت عنه

1 - النتائج الدِّيمغرافيّة

اختلفت التقديراتُ لعدد السّكّان الأصليين للأمريكيّتين خلال الفترة الحديثة إلى حدِّ التّضارب، إذ يُقدِّرُ كُلٌّ من «فريديريك دورال» و»ريجيس دوبراي»، أنَّ العددَ الإجمالي لسكان «أمريكا» قبل الغزو (1492) بحوالي 100 مليون نسمة[1]. في حين يذهبُ كُلٌّ من «بوركولدر» و»جونسون» (Burkholder and Johnson) إلى أنَّ العددَ يتراوحُ بين 35 مليون 45 مليون نسـمة (بْرَيَر، 2004، ص410)، بينما يُقدِّرُ «ريكارد» (Richard) أنَ العددَ لا يتجاوز 20 مليون نسمة و»هوربون»(Hurborn)، يُحدِّدُهُ بـ 15 مليون نسمة[2]. ويذهب كُلٌّ من مارسـال قرندان (Marcel Grondin) ومويما فيزار (Moema Viezzer) أنَّهُ تمَّت إبادةُ 18 مليون نسمة قبل القرن 17م من سكان أمريكا الشماليَّة[3].

وتُؤكِّـد دراسـةُ هذه المجموعة من الأمثلة عـن الإبادة، تباين الأرقام وتذبذبها. فعلى سـبيل المثال؛ قُدِّرَ عددُ سكّان «جزيرة هيسبانيولا» (Hispaniola) مع وصول كريستوف كولومبس سنة 1492 بحوالي 300 ألف نسـمة، - وهو رقمٌ ضخمٌ مُقارنة بمـا أورده بقية المؤرخين- ثمَّ بدأ هذا

1 - Dorel, F.2015, pp.2- 3 ; Debray, R. 1991, pp. 51- 56

2 - بْرَيَر، 2004، ص410

3 - Grondin, M. Viezzer, M. 2022, p. 216

العددُ في الانخفاض الحادِّ ليصلَ إلى 50 ألف نسمة سنة 1510، ثمّ تقلَّصَ إلى 16 ألف نسمة سنة 1530، ولم يبق إلاَّ 1000 نسمة سنة 1540 [1].

أمَّا المثال الثاني فيتعلّقُ بأمريكا الشَّماليَّة، فإنَّ عددَ السّكَّان حسب تقديرات كُلٍّ من جيمس موني «James Mooney» وهنري ف. دوبينز «Henry F. Dobyns»، قد انخفضَ من 7 ملايين نسمة قبل الغزو الأوروبيّ إلى 375000 نسمة سنة 1900، أي بنسبة انخفاضٍ حادٍّ قُدِّرَ بحوالي 94 % [2].

ويُرجعُ العديدُ من المؤرِّخين هذا الانهيارَ الدّيمغرافي، إلى المذابح التي ارتكبها المستوطنون الأوروبيُّون، وإلى الإبادة المُنهجة للجنس البشري على امتداد خمسة قرون، والتي ذهب ضحيتها ما يقارب 100 مليون من السّكَّان الأصليّين في النّصف الغربي من الكرة الأرضيَّة، حسب تقديرات المؤرِّخ الأمريكي ديفيد ستانارد (David Stannard) في كتابه «المحرقة الأمريكيَّة: كريستوفر كولومبس وغزو العالم الجديد».

ووفقاً لما ذكره، عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي راسل تورتنون (Russell Thornton) في كتابه «الهولوكوست وبقاء الهنود الأمريكيين: تاريخ السّكَّان منذ سنة 1492»، أدَّت الحروبُ إلى إبادة حوالي 12 مليون من السّكَّان، بين سنة 1492-1900 [3].

وتبقى الإبادةُ حقيقةً تاريخيَّة، لا يمكن إنكارها - رغم اختلاف التقديرات-، إذ إنَّ الأوروبيين تسبَّبوا في القضاء على أغلب السّكَّان الأصليّين للأمريكيّتيْن، حيث إنَّ الخسائرَ البشريَّةَ المُترتبة عن الغزو الأوروبيّ خلال الفترة الحديثة تُعدُّ مُهمَّة، فحسب مارسال قراندان تصلُ إلى ما بين 90 % و95 % من الضحايا الذين تمَّت إبادتهم والقضاء عليهم إثر الحروب الوحشيَّة، وعمليات القتل العشوائي ومناهج التَّنكيل والاستعباد والتَّجويع، واستراتيجيَّات التّهجير القسري وآليَّات النَّهب وطرق الاستغلال الفاحش والتّفقير[4]، وهذا ما يُؤكِّدهُ جون كريستوف تمداوي (Jean Christophe Temdaoui)، من أنَّهُ لم يتبق من السّكَّان المحلّيين سوى 5% [5].

تُعدُّ هذه التقديرات مُقتضبةً ومُتضاربةً حول تحديد نسبة الإبادة السّكَّانيَّة بالأمريكيّتين، لكن

1 - Dorel, F.2015, pp.2- 3 ; Debray, R. 1991, pp. 51- 56

2 - Dorel, F.2015, pp.2- 3 ; Debray, R. 1991, pp. 51- 56

3 - Kutlu, O. 2021 ; Thornton, R. Vol. 186, 1990, pp. 51- 56

4 - Grondin, M. Viezzer, M. 2022, p.216

5 - Temdaoui, J.C., 2017, pp.10- 11

رغمَ ذلك، يبقى كتابُ دي لاس كاساس، أهمَّ المصادر التي تمُيطُ اللّثام عن عدد الضّحايا لكُلِّ قبيلة، دون أن يكشفَ لنا عن المصدر الذي استقى منه هذه المُعطيات. ومع ذلك فهي تظلُّ من بين الشّــهادات النادرة عن هذه الإبادة الجماعيَّة في القرن الســادس عشر. حيث يُقدِّرُ أنَّ عددَ الضحايــا قد تجاوزَ 12 مليون رجل وامرأة وطفل في جــزر الأنتيل (Les Antilles)، وتمَّ تقريبًا القضاء على سكان جزيرة كوبا (L'île de Cuba) بالكامل، في فترة لا تتجاوز تقريبًا 50 سنة[1].

وبحســب دي لاس كاساس، مات أكثر من ســبعة آلاف طفل في هذه الجزيرة[2]، إضافة إلى القضاء على أربعين ألف شخص[3]. وهكذا دمّر المسيحيون الجزيرة بأكملها وأخلوا سكانها[4]. كما أشار إلى أنّه لم يتبقّ من سكّان جزيرتي سان خوان (San Juan) وجامايكا (La Jamaïque)، ســوى عدد قليل لا يتجاوز 200 شــخص في كلّ منهما، بعد أنْ كان العدد الإجمالي للســكّان بهما يتراوح بين 600 ألف ومليون نســمة[5]. كذلك الشّــأن، بالنّسبة إلى المقاطعات التابعة إلى نيكاراغوا، التي أُبيد بها أكثر من 800 ألف شخص على أيدي الإسبان. وتواصلت عملياتُ الإبادة والاستئصال لما تبقَّ من السّكَّان إلى حدود سنة 1553 [6].

وتذهبُ أغلبُ الدّراســات التَّاريخيّة، إلى أنَّ وحشيّةَ الإنسان الغربي وممارساته الفظيعة، لم تكن السَّــببَ الوحيدَ في الانهيار الدّيمغرافي لســكان أمريكا، بل تتبنَّى الطَّــرحَ الذي يقول: إنَّ تفشِّي الأمراض السّــارية مثل الطّاعون والجدري[7]، والأوبئة الوافدة مع الأوروبيّين، كانت سببًا في تسريع نســق الانهيار الحادّ لعدد سُكَّان «أمريكا» الأوائل[8]. وهو ما أكَّدهُ دي لاس كاساس، مُعترفًــا أنَّ وحشــيّةَ الوافدين لم تكن العاملَ الوحيــدَ المُفسِّر للإبادة، بل يذهــبُ إلى اعتبار أنَّ «الهنودَ يموتون بسهولةٍ شديدةٍ بسبب أيِّ نوعٍ من الأمراض»[9]، فقد سهَّلت الحملات التوسعيّة

1 - De Las Casas, B. 1983, p.49
2 - De Las Casas, B. 1983, p.67
3 - De Las Casas, B. 1983, p.70
4 - De Las Casas, B. 1983, p.68
5 - De Las Casas, B. 1983, p.70
6 - De Las Casas, B. 1983, p.72
7 - بْرَيَر، 2004، ص102
8 - Grondin, M. Viezzer, M. 2022, p. 216
9 - De Las Casas, B. 1983, p.49

«الاتّصال الجسدي والفيروسي»، ويرى «أنَّ الاختلاطَ بين السّكَّان الذين يتردّدون على الإسبان في أثنـاء عملهم في المنزل يُصابون بأمراضٍ شـتَّى مجهولة لديهم، ولا تحُول مناعتهم الطّبيعيّة دون مُقاومتها وانتشـارها، على غرار الأنفلونزا والحصبة والجدري والزهري...»[1]، وهو موقفٌ يتعارضُ مع ما أفاد به في وصفه لمظاهر التعذيب والتنكيل.

في المقابل، يُؤكِّدُ هذه الفكرة جملةٌ من المؤرِّخين، وعدُّوها المُحدِّدَ الوحيدَ المُفسِّرَ للكارثة الدّيمغرافية التي عاشها سكان «أمريكا»، وأكدوا أنَّ «الظّروفَ التي سهَّلت من آثار الأوبئة المرُوِّعة التي جاء بها الأوروبيّون والأفارقة. (...) تلك الأوبئة الجديدة، التي لم يكن السّكَّان المحلّيون مُحصَّنين ضدها، أدَّت، أكثر من أيِّ سببٍ، إلى نِسَبٍ فلكيّةٍ في الوفيات (...) وكان وباء الجدري والحصبة مصدر القتل الأساس»[2].

لقـد أظهرت بعـض الأبحـاثُ، أنَّ وصولَ جملـة الأمراض المذكـورة، كانـت وراءَ اختفاء مُجتمعات بأكملها خلال بضع سـنوات، إضافة إلى انتشـار الجراثيم على البضائع المتُاجر بها (الأدوات والأواني الزجاجيّة)، وعلى الحيوانـات (الأبقار والخنازير والدّواجن)، وكذلك على الطّفيليّات. ففرضيّة الصّدمة البكتروبيولوجية المتأتّية من أوروبَّا، كان تأثيرها مباشرًا على السّكَّان المحلّيين الفاقدين للمناعة ضدَّها[3]، من ذلك مرض الجدري في بلاد الإنكا (1525)، والتيفوس في المكسـيك (1546)[4]، و كذلك الأنفلونزا (1558-1559)، والحصبة في المكسيك (1530)، والنّكاف والخُناق منذ أكتوبر1492. وجميعها عُدَّ من العوامل الرَّئيسة « في اختفاء ملايين الأفراد الذين لم يفهموا الوضع الجديد، واعتقدوا خذلان آلهتهم التقليديَّة، الأمرُ الذي سـهَّلَ تسليمهم إلى عمل المُبشِّرين»[5].

وإمعانًا في هذا التوجُّه، عُدَّ رجلُ الدِّين الإسباني «فراي توريبيو» أنَّ ما أصابهم، إنَّما هو ابتلاءُ الله بسبب «وثنية السّكَّان المحلّيين»[6]، ولدرء هذه الخطايا والآثام وجب تنصيرهم وتعميدهم.

---

1 - De Las Casas, B. 1983, p.49

2 - بْرَيَر، 2004، ص102-103

3 - Dorel, F.2015, p.4

4 - Dorel, F.2015, p.3

5 Dorel, F.2015, p.4

6 - بْرَيَر، 2004، ص 97

غير أنَّ عددًا من المُؤرِّخين يجزم أنَّ عمليّةَ التّهجير القسْري للسـكّان إثر الحروب التي خاضها الأوروبيُّون ضدَّهم وظروف العمل القاسية والتّجويع[1]، والسُّخرة التعسُّفيّة وما تبِعَها من مجاعة وسـوء التّغذية والكـوارث الطّبيعيَّة، التـي كانت تقضي على المحاصيل بأكملهـا[2]، و«الضرّر النّفسي» هي التي أثّرت وأضعفت «من عزيمة السّكّان في العيش والتناسل»[3].

2 - النتائج الثّقافيّة

كان من تداعيات الحركة التوسُّعيّة للاستعمار الأوروبيّ خلال القرنين 16م و17م «بأمريكا»، القضاء على ثقافة «المتُوحّش»[4]، وهو التوصيف الشّـائع والمُتداول الذي يُطلقُ على السّـكّان الأصليّين، تحقيراً لهم ولثقافتهم «البدائيّة» و«التقليديّة»، كما يُجرِّدهم من صفة الإنسانيّة وينزلهم منزلة الحيوان، الذي يحتاج إلى التّرويض والتّدريب، لذلك قامت الحركاتُ الاستيطانيّةُ الأوروبيّة على منهجٍ يهدفُ لطمس الخصوصيّة الثقافة والمرجعيّة الحضاريّة للسكان الأصليّين من جهة، وفرض الثقافة الأوروبيّة «المُتفوِّقة» وترويجها بين السّكّان الأصليّين من جهة ثانية، ودفعهم إلى اعتناق الدّيانة المسيحيّة[5].

هذه النّظرةُ تعدُّ الأوروبي محور الحضارة الإنسانيّة، وتُحقِّرُ وتزْدَرِي في المقابل ثقافة الآخر، مُتجاهلة بذلك الثقافات والحضارات ما قبل الكولومبيّة المتطوّرة لقبائل الأُولمك والمايا وتُلتك وأزْتِيك والإنـكَا[6]. إذاً، وبدافع الهيمنة وتثبيت فكرة مركزية الحضارة الأوروبيّة وتفوُّقها، مُقارنة بحضارة «أبيا يالا»، قام المُبشِّرون ورجال الدّين أساسًـا بدعم من الكنيسـة الكاثوليكيّة بالدَّور الأساسي في عمليّات التّهجين التعسُّفيّة والاستيعاب القسري للسكّان الأصليّين في صلب الثقافة والحضارة الأوروبيّة.

بالنسـبة إلى الأوروبيين الذين اسـتقرُّوا في «العالم الجديد»، أصبحَ من الضروري لهذه الأمم

1 - بْرَيَر، 2004، ص 82
2 - بْرَيَر، 2004، ص102
3 - بْرَيَر، 2004، ص102-103
4 - Hirsch, S. Moisan, S. p.14
5 - Hirsch, S. Moisan, S. p.5
6 - بْرَيَر، 2004، ص 82

أن تتخلّى عن حالتها البدائية (الحالة الطبيعة)، لتُحقِّقَ التقدُّمَ في مستوى العادات ونمط العيش والمعرفة والأفكار، بغرس القيم وأساليب الحياة الأوروبية فيهم، من أجل إخراجهم من حالتهم «الوحشية» و«البربرية»، وذلك عن طريق: انتهاج سياسة تُفضي إلى تغيير المُعتقدات الدّينيّة، أو باعتماد العزل والفصل والاستيعاب عن طريق التعليم أو المُؤسَّسات التعليميّة، كوسيلة لاحتواء السّكّان وإخضاعهم اجتماعيًّا وثقافيًّا، وفي هذا السِّياق اضطلعت البعثاتُ البروتستانتيةً والكاثوليكية، التي نظَّمتها الإمبراطوريّات الاستعماريّة بالتّزامن مع البعثات العسكريَّة، بالدّور البارز في دمج السّكّان الأصليّين في الثقافة الأوروبيَّة[1]. وقد تمّت الاستفادة من جهود المبشّرين لتدمير ثقافة السّكّان الأصليّين ومحوها من ذاكرة الشعوب الأصليّة.

ففي المُستعمرات الكنديَّة وأمريكا الشَّماليَّة، عمل التُّجَّارُ والمُبشِّرون الفرنسيُّون على نسج علاقات قائمة على التّحالف والتّبادل التّجاري مع السّكّان الأصليّين، ممَّا مهَّدَ الطّريقَ إلى اعتناق الكثير منهم الدّيانة المسيحيَّة، عن طريق البعثات التبشيريّة المُتعدّدة التي تُنظِّمها الكنيسة، والتي كان يُشرفُ على إدارتها المُبشِّرون في المحميّات للتشجيع على اعتناق الدّين المسيحي والتعرُّف على الثقافة الأوروبيّة.

وهذا النشاط نجدُ لهُ صدىً أيضًا في المُستعمرات الإنجليزيّة، التي كُرست فيها الجهود على إضفاء الطابع الثقافي[2]. لقد تأسَّسَ العملُ لنشر نمط العيش والثقافة الفرنسيّة على نظرة دونيّة تحطُّ من منزلة الثقافة المحليّة، وعلى اعتبار أراضي السّكّان الأصليّين، أراضي مُتوحّشين يغيبُ فيها التنظيم السياسي والهرمي والعائلي[3]. وهذه النّظرة كانت تُجيزُ لهم القيام بفعل التحضرُّ والتّثقيف دون مُراعاة للاختلاف الحضاري الثقافي.

كما قامت عملياتُ الاستيعاب، عن طريق آليَّة تدمير البيئة الاجتماعيَّة والثقافيَّة والدّينيّة، بالعمل على استبدال المرجعيّة الأصليّة للسكان بالمرجعيَّة الأوروبيَّة، لا سيّما عن طريق التّبشير والتّنصير عن طريق اتّباع نظام المحميّات، الذي يضع السّكّان الأصليّين تحت سلطة ورقابة مُؤسَّسات دينيّة أو لائكيّة، خاصّة ممَّن اضطرَّ إلى الالتحاق بهذه المراكز بعد أن فقد أراضيه وأملاكه، ممَّا أدَّى تدريجيّاً إلى فقدان الخصوصيّة الثقافيّة واللغويّة، وهذا النّظام مثّل شكلا من

1 - Leforestier, C. 2012, p.38

2 - Jaenen, C.J. 2007

3 - Temdaoui, J.C., 2017, p.4

أشكال الاندماج القسري في «أمريكا» الشّماليّة[1].

لقد كانــت عمليّات الاختراق الثقافي قويّة بالنّظر إلى تنامــي حضور العنصر الأوروبي بهذه المجالات، وهو ما أدَّى تدريجيًّا إلى تدعيم ثقافة المُستعمر وهيمنتها على حساب الثقافة الأصليَّة للسكّان الأصليّين. فلم يكن الأمرُ هنَا، يتعلّق بغزو الأرض والهيمنة على مجالات شاسعة فقط، بل بغزو الذّاكرة الثقافيّة[2]، وتفكيك ثقافة هذه الشّعوب تمهيدًا للاستيعاب والدَّمج الثقافي.

ومن أهمِّ أســاليب الهيمنة والســيّطرة، محو الذَّاكرة وتغييب الشواهد والعلامات والمُميِّزات والصــور الثقافيّة من ذاكرة المُجتمع الأصلي، وهو ما يُفسِّرُ الآثارَ المأســاويَّةَ النّاتجةَ عن الغزو الثقــافي الأوروبيّ للشــعوب الأصليّة. فالاســتيلاءُ عــلى الأراضي ارتبطَ إلى حــدٍّ كبيرٍ بدوافع ثقافيّــة- دينيّــة، مُعتبريــن أنَّها أراضي مُشــاعة وغير مأهولة. ووفقــاً لهذا المبــدأ، فإنَّهُ يجب أن تخضعَ للمســيحيّين[3]، مماَّ يُبينُّ أنَّ العنفَ الذي لحق بالأرض، سيمتدُّ تأثيرهُ إلى السّكَّان وإلى ثقافتهم. فلم يكن التملُّكُ والامتلاكُ ســوى تمهيدًا لعمليات الاستيعاب ومُبرِّرًا للهيمنة الثقافيَّة على السّــكَّان. وهي سياســةٌ أشــبهُ ما تكون بعمليّة اجتثاثٍ من الأرض، ومحوٍ للإرث الثقافي والحضاري.

خاتمة

لــئن أفضت حركاتُ التوسُّــع الأوروبيِّ إلى الانتهــاك والتّنكيل والقتــل والحرمان ومصادرة الأراضي، فإنَّ هذه الممارســات، لم تكن ســوى وجهاً من وجوه الإبــادة الجماعيَّة المُنهجة، بــل مهَّدت الطّريق إلى الهيمنة والإخضاع الكلّي والقسري، وإلى الإدماج والاســتيعاب الثقافي والحضاري للســكّان الأصليّين. ويمكن مُعاينةُ آثار هذه الممارسات اليوم، في صعوبة تأسيسِ معرفةٍ حقيقيّةٍ لتاريخ وحضارة ســكّان «أبيا يــالا» الذي وقع تغييبه وتجاهله على مرِّ التَّاريخ، بل والانتقال به من التّهميش إلى النّسيان، ولم يبق منه سوى ما اختمرَ في الأذهان عن تاريخٍ دمويٍّ خلّدته الذّاكرة الإنسانيَّة في الرِّوايات المُتداولة.

1 - Dorel, F.2015, p.9

2 - Ross-Tremblay, P. Hamidi, N., 2013, p.52

3 - Samson, J.C. Vol. 5, 2008

لقد اعتمد منهجُ الإبادة العرقيّة الثقافية لسـكّان «أبيا يالا»، على المنبع السياسي والإيديولوجي نفسه، وهو مرجعيّةٌ استعماريّةٌ، يمكن أن تُقرأَ في مُختلف السيِّاقات والأحداث التَّاريخيّة، على أنَّها «جريمة إنسانيّة»، رغم أنَّ العديدَ من الدِّراسات والأبحاث المُتحمِّسة والمُناصرة للعقيدة الاستعماريَّة لازالت إلى اليوم تُبرِّرُ الغزوَ والقتلَ باسم الحضارة والتمدُّن، ومُقاومة الوحشيّة والبربريّة.

ولا شكَّ أنَّ هذا الانحيازَ والتّعتيم، يفتحُ جدلاً تاريخيًّا وبحثيًّاً حول حقيقة الجرائم والفظائع التي ارتكبها المُستوطنون، منذ السّنوات الأولى من الغزو والتّوسُّع «بأمريكا»، ومن ثمّ الكشف عن التَّاريخ الدّموي للاستعمار الأوروبي الذي لا زال إلى اليوم، يتنصَّلُ من المسؤوليّة التَّاريخيّة والتّدميريّة لمجتمعات وحضارات عريقة.

ولا يخفى في هذا السِّـياق مُخلّفات التدخُّل العسـكري الاستعماريّ واسـع النّطاق في العراق وأفغانسـتان، وغيرهما من الدُّول، والانحياز إلى تبرير عمليّات القتل والتّدمير العشـوائيّ والإبادة الجماعيّة للفلسطينيّين. أليس هذا تاريخ الدّول الأوروبيّة، التي تتفاخرُ بقيم الحرّية والعدالة وحقّ الشّـعوب في تقرير مصيرها، أليس هـذا التّواطؤ يجعل الهيمنةَ والاسـتعبادَ والاسـتغلالَ والظلمَ والانتهاكَ وخرق المُعاهدات والاتفاقيات، سمة مُميّزة للتاريخ الاستعماري، الذي يجعل الإدانة دون مُستوى الإبادة والجرائم المُرتكبة ضدّ الإنسانيّة. أليس هذا ما يجعل القوانين والتشريعات الدوليّة تصمتُ في هكذا مسائل، مثل الحقوق والحرّيات وحماية الأعراق والدّيانات والثقافات المُختلفة!؟

إنَّ الإبادةَ في مضمونها، إباداتٌ مُتنوّعةُ الأشـكال ومُتزامنة الأوقات ومُتراصَّة الغايات، تعمَدُ كُلُّهـا إلى الإيذاء المادّي والمعنوي- الرَّمزي لمجموعاتٍ بشريّـةٍ أحالتها الظُّروف إلى هوامش التَّاريخ والمجال. غير أنَّها لا تمُحى من الذّاكرة الجماعيَّة للشّعوب المعنيّة، مهما حالت آليَّات «المُتفوِّق-المُبيد» وأدواته إلى رميها طيّ النّسيان.

وفي هذا الإطار، لنا أن نتساءلَ، لماذا أغلبيّة شعوب ودول أمريكا اللاّتينيّة تدعمُ الحقَّ الفلسطينيَّ في تقريـر المصير، وتُطالبُ بوقف العدوان في غزّة، والذي ارتقى إلى مُسـتوى الإبادة الجماعيّة. هل يعود ذلك إلى مُجرَّد وعي النُّخب والقيادات السياسـيّة التقدُّميّـة ببوليفيا وفنزويلا وكولومبيا والبيرو والشيلي وغيرها؟ أم لاستبطان شعوب تلك القارّة للمجازر المُقترفة ضدَّ الفلسطينيّين كتلك المجازر والإبادة الجماعيَّة التي تعرَّضت لها أثناء الغزو والتوسُّع الأوروبيّ في القرنين 16م و17م؟

المراجـــــع والمصادر

المراجع باللّغة العربية:

■ بْرَيَر، م. (2004)، الكتاب المقُدَّس والاستعمار الاستيطاني: أمريكا اللاتينية، جنوب إفريقيا، فلسطين، ترجمة أحمد الجمل وزياد منى، ط.2، قُدْمُس للنّشر والتّوزيع، دمشق، سوريا.

المراجع باللُّغة الأجنبيّة:

■ BADDELEY, S. (2011). « Le récit de l'île du Massacre Jacques Cartier, Discours du voyage fait par le capitaine Jacques Cartier (15341545-) », La Clé des Langues Lyon, Ens de Lyon/Dgesco (ISSN 21077029-), Consulté le 222024/01/. URL: https://cle.ens-lyon.fr/anglais/litterature/litterature-britannique/le-recit-de-voyage-a-l-epreuve-des-langues-le-cas-des-recits-de-voyage-de-jacques-cartier-15341545--

■ BEAULIEU, A. (1997). Les autochtones du Québec: des premières alliances aux revendications contemporaines, Coperation musée de la civilisation, Editions Fides, Québec.

■ BELLIER, I. (2021). « Les peuples autochtones face au génocide, à l'ethnocide, à l'écocide », 17. p. URL : https://gitpa.org/web/Bellier%20Genocides.pdf.

■ BOQUEHO, v. (2020). « XVIe-XVIIe siècle : Espagnols et Portugais à la conquête de l'Amérique», in hérodote.net, URL : https://www.herodote.net/Espagnols_et_Portugais_a_la_conquete_de_l_Amerique-synthese-488.php , mis en ligne le 092020/05/.

■ CARTIER, J. (1598). Discours du voyage fait par le capitaine Jacques Cartier aux terre-neufves de Canadas, Norembergue, Hochelage Labrador et pays adiacens, dite nouvelle France, avec particulieres mœurs, langage et ceremonies

des habitans d'icelle, ed., de l'imprimerie de Raphaël du Petit Val, Librairie& imprimeur du roy, à l'Ange de Raphaël, Rouen.

■ CLASTRES, P. (2002). « Ethnocide », in Encyclopaedia Universalis, vol.8, Paris, pp. 888890-.

CORNELIUS, J. (2007). « Relation entre les autochtones et les français », in, Encyclopédie Canadienne, URL : https://www.thecanadianencyclopedia.ca/fr/article/relations-entre-les-autochtones-et-francais

■ DE LAS CASAS, B. (1983). Très brève relation de la destruction des Indiens, ed., La Découverte/ Maspero, Paris.

■ DEBRAY, R. (1991). Christophe Colomb, le visiteur de l'aube. Paris, La Différence.

■ DOREL, F. (2015). « La thèse du «génocide indien»: guerre de position entre science et mémoire», in Amnis, (13p.), URL: https://www.researchgate.net/publication/28219750

■ El Kenz, D. (2005). Le massacre, objet d'histoire. Paris, Gallimard, coll. Folio histoire, 557 p.

■ GARRAIT-BOURRIER, A. (2015). « Du génocide « éprouvé » à l'ethnocide affirmé », Témoigner. Entre histoire et mémoire, n°120, pp.122136-. URL : https://doi.org/10.4000/temoigner.2185

■ GRONDIN, M. VIEZZER, M. (2022). Le génocide des Amériques : Résistance et survivance des peuples autochtones, Traduction du portugais (Brésil) par Yves Carrier, avec la collaboration de Raymond Levac, Préfaces de Ailton Krenak, Jacques B. Gélinas, Les Éditions Écosociété, Quebec, pp. 1516-.

■ Hirsch, S. Moisan, S. « Le génocide des premiers peuples au canada », 31p. Étudier les Génocides, URL : https://oraprdnt.uqtr.uquebec.ca/pls/public/docs/

GSC1022/O0004063090_01_04_A_Genocide_des_Premiers_peuples_FRA.pdf

■ JUNCOSA, F. (1987). « ABYA-YALA: Una edictorail para los indios », in Chasqui, n°23, pp.3942-.

■ Kutlu, O. (2021). « États-Unis: une Histoire à l'enseigne des massacres et des génocides», Traduit de l'Anglais par Mourad Belhaj, URL: www.aa.com.tr/fr/monde/états-unis-une-histoire-à-l-enseigne-des-massacres-et-des-génocides/226198

■ Kutlu, O. (1987). « États-Unis: une Histoire à l'enseigne des massacres et des génocides » , Thornton, R. American Indian Holocaust and Survival: A Population History since 1492, Vol. 186 of Civilization of the American Indian series, University of Oklahoma Press, Social Science, 292 p.

■ LEBRUN, F. (1999). L'Europe et le monde XVIe, XVIIe, XVIIIe siècle, Ed., Armand Colin, 4ème Ed., Paris.

■ Leforestier, C. (2012). L'assimilation des indiens d'Amérique du Nord par l'éducation: une étude comparative, Education, Université Michel de Montaigne, Bordeaux III, 2012. Français. 477p., NNT: 2012BOR30005. URL: https://theses.hal.science/tel-00730946/document

■ LEGRAND, O. (2013). « Le mystère de Roanoke: un supplément pour le jeu de rôle SOLOMON KANE », Inspiré de l'œuvre de Robert E. Howard, 14 p. URL : http.//solomonkane.free.fr/ROANOKE.pdf

■ ROSS-TREMBLAY, P. HAMIDI, N. (2013). « Les écueils de l'extinction Les Premiers peuples, les négociations territoriales et l'esquisse d'une ère postcoloniale», la revue Recherches Amérindiennes au Québec, XLIII, n° 1, pp. 5157-.

■ SAMSON, C. (2008). « The Rule of Terra Nullius and the Impotence of International Human Rights for Indigenous Peoples », in Essex Humane Rights

Review, vol.5, n°1, Huly, pp.112-, URL : https://repository.essex.ac.uk/17961//terra_nullius_ehhr_2008.pdf

■ STANNARD, D. (1993). American Holocaust, Columbus and the Conquest of the New World, Oxford University Press.

■ Temdaoui, J.C., (2017). « L'Amérique du Nord française (XVIIe-XVIIIe siècle)», in Licence. Hal Open Science, France, 12p. URL: https://shs.hal.science/halshs-03090644/document.

■ Thomazi, A.(1947). Histoire de la navigation, Collection «Que sais-je ?», Ed. p.U.F., Paris, 128 p.

■ Thornton, R. (1987). American Indian Holocaust and Survival. A Population History since 1492, Norman, University of Oklahoma Press.

■ TURGEON (Laurier), (2019). Une histoire de la Nouvelle-France : Français et Amérindiens au XVIIe siècle, Ed, Belin, Paris.

■ Yacoubi, R.(2012). La marginalité féminine à Aix-en-Provence au temps de Louis XIV, Thèse de doctorat en histoire moderne occidentale, Sous la direction de Hassen El Annabi, 2 Tomes, Faculté des Silences Humaines et Sociales de Tunis, Tunis.